تثقيف الأذهان بعقيدة
الإسلام والإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم

ضعف التفريق بين الإسلام والإيمان

الحمد لله الذي وفّق من أراد هدايته للإسلام، فانقادت للعمل به منه الجوارح والأركان، فأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وصام رمضان، وحج بيت الله الحرام.

وأشهد أن لا إله إلا الله، شهادة من قال ربي الله ثم استقام، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، عليه أفضل الصلاة والسلام.

أما بعد: فإن الناس في قديم الزمان وحديثه، قد اشتغلوا بالخوض في موضوع الإسلام والإيمان، في حالة اجتماعهما وتفرّقهما، وقد اختلفت أفهامهم فيهما لاختلاف النصوص الواردة في شأنهما.

وأشهر ما ورد في حقيقة الإسلام هو: ما رواه البخاري ومسلم من حديث ابن عمر، أن النبي ﷺ قال: (**بُنِيَ الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان**).

ثم ما رواه مسلم من حديث عمر، في سؤال جبريل، حيث قال للنبي ﷺ: «يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال: (**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً**). قال: صدقت، ثم قال: أخبرني عن الإيمان؟ فقال: (**الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**). قال: صدقت. ثم قال: أخبرني عن الإحسان؟ قال: (**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك**). قال: صدقت». ورواه البخاري من حديث أبي هريرة، وفي آخره قال: (**فإنه جبريل، أتاكم يعلّمكم دينكم**).

وفي حديث وفد عبدالقيس، عن ابن عباس، أن النبي ﷺ قال: (**آمركم بالإيمان بالله وحده. أتدرون ما الإيمان بالله؟ هو: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تؤدوا الخُمُس**).

ففسر الإيمان بشرائع الإسلام، ويدل له في الصحيحين: أن النبي ﷺ قال: (**الإيمان بضع وستون**). وفي رواية (**بضع وسبعون - شعبة أعلاها: قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**). وهذه الشعب هي أقوال وأفعال. فهي من عمل الإسلام. وقد سمّاها رسول الله ﷺ بالإيمان؛ لشمول الإيمان للأعمال، ولكون الإيمان هو الإسلام، والإسلام هو الإيمان. قال ابن أبي شيبة: لا يكون إسلام إلا بإيمان، ولا إيمان إلا بإسلام. حكاه عنه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب (الإيمان، ص١٧١).

وجاء رجل إلى أبي ذر، فقال: ما الإيمان؟ فقرأ عليه هذه الآية: ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾[1].

فقال الرجل: ليس عن البر سألتك. فقال أبو ذر: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عما سألتني عنه، فقرأ عليه هذه الآية، فأبى أن يرضى، كما أبيت أن ترضى، فقال له رسول الله ﷺ: «**المؤمن إذا عمل حسنة سرّته ورجا ثوابها، وإذا عمل سيئة أحزنته وخاف عقابها**» رواه ابن أبي مردويه، وذكره ابن كثير في التفسير.

وقد قال العلماء: إن الإسلام والإيمان إذا اجتمعا تفرّقا، فيفسر الإيمان باعتقاد القلب بوجود الرب، ووجود ملائكته، والبعث بعد الموت، والجنة والنار.

ويُفسّر الإسلام بعمل الجوارح؛ من النطق بالشهادتين، وبالصلوات الخمس المفروضة، وأداء الزكاة، وصوم رمضان، والحج.

وهي أعمال ظاهرة، كما أن الإيمان من الأعمال الباطنة، وقد اجتمعا بهذا التفسير في حديث رواه الإمام أحمد عن أنس، أن النبي ﷺ قال: (**الإسلام علانية،**

---

(١) سورة البقرة: ١٧٧.

والإيمان في القلب). فلا بد من اجتماع الإيمان والإسلام في الشخص. ومعنى كون الإسلام علانية، أن المسلم على الحقيقة لا بد أن يظهر إسلامُه علانية للناس؛ بحيث يشهدون له بموجبه، والناس شهداء الله في أرضه، فيرونه يصلي مع المصلين، ويصوم مع الصائمين، ويؤدي زكاة ماله إلى الفقراء والمساكين، فيظهر إسلامه علانية للناس، فيشهدون له بموجبه. وهذا معنى العلانية.

ويدل له قول النبي ﷺ: (**إن للإسلام صوى ومناراً كمنار الطريق**). أي يُعْرف به صاحبه، فترك الواجبات الظاهرة دليل واضح على انتفاء الإيمان الباطن؛ إذ أن الإيمان الصحيح في القلب، مستلزم للعمل الصالح بحسبه، ويمتنع أن يكون في القلب إيمان تام بدون عمل.

والإيمان في إطلاقه بمثابة اسم الدين في شموله.

وهذا معنى قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: (**ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**)[1].

يشير بهذا إلى أنه متَى صلح القلب بعقيدة الإيمان، نشطت الجوارح بأداء واجباتها، وإذا اختل صلاح القلب، اختل عمل الجوارح، وقد وصفوا القلب بالملك، والجوارح جنوده التابعة له، تسعد بسعادته، وتشقى بشقاوته، أشبه الروح مع الجسد.

وروى البخاري في تاريخه عن أنس، أن النبي ﷺ قال: (**ليس الإيمان بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل، وأن قوماً ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، يقولون: نحن نحسن الظن بالله وكذبوا، لو أحسنوا الظن، لأحسنوا العمل**). أخذها الحسن البصري، فقال: «ليس الإيمان بالتحلي، ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلوب، وصدقته الأعمال». ولهذا قال أبو ثور: «الإيمان تصديق وعمل».

---

(١) رواه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير.

ثم ليعلم أن هذه المباني الخمس الواردة في حديث ابن عمر، أن النبي ﷺ قال: (**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج**)[1].

فهذه هي أصل الإسلام لمن سأل عن الإسلام، كما أنها الفرقان بين المسلمين والكفار، وكما أنها محك التمحيص لصحة الإيمان، بها يعرف صادق الإسلام من بين أهل الكفر والفسوق والعصيان، وقد ذاق طعم الإيمان: من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً رسولاً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في كتاب (الإيمان): إنه مما يسأل الناس عنه كثيراً، قولهم: إذا كان مما أوجب الله من الأعمال الظاهرة أكثر من هذه الخمس التي هي أركان الإسلام، فلماذا قال: الإسلام مبني على هذه الخمس: الشهادتين، والصلاة، وأداء الزكاة، وصيام رمضان، وحج بيت الله الحرام؟

ثم قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

فأجاب: بأن هذه هي أظهر شرائع الإسلام وأعظمها، وبقيامها يتم استسلامه للإسلام، وبتركه لها يشعر بانحلاله عن قيد الإسلام.

قال: والتحقيق، أن النبي ﷺ ذكر الدين الذي هو استسلام العبد لربه مطلقاً، والذي يجب لله عبادة محضة على الأعيان، فيجب على كل من كان قادراً عليه، ليعبد الله بها، مخلصاً له الدين، وهذه هي الأركان الخمسة.

وما سوى ذلك، فإنما يجب بأسباب المصالح، فلا يعم وجوبها جميع الناس، بل إما أن تكون فرضاً على الكفاية، كالجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وما يتبع ذلك من إمارة، وحكم، وفتيا، وتحديث، وغير ذلك. وإما أن يجب بسبب حق الآدميين يختص به من وجب له وعليه، وقد يسقط بإسقاطه، وكذلك ما يجب من صلة الأرحام، وحقوق الزوجين، والأولاد، والجيران، والشركاء، والفقراء، وكذلك

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

قضاء الديون، ورد الغصوب، والعواري، والودائع، والإنصاف من الظالم، ومن الدماء، والأموال، والأعراض.

فكل هذه، هي حقوق الآدميين، وإذا أبرأوا منها سقطت، وتجب على شخص دون شخص، وفي حال دون حال، ولم تكن عبادة لله يختص بها كل أحد؛ ولهذا يشترك في أكثرها المسلمون، واليهود، والنصارى، بخلاف الأركان الخمسة، من الشهادتين، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج - مع استطاعته - فإن وجوبها خص بكل أحد من المسلمين.

والزكاة، وإن كانت حقاً مالياً، فهي واجبة لله، وللأصناف الثمانية مصارفها، ولم تطلب من الكفار؛ لكونها من شعائر الدين، انتهى.

فمن ادعى وجود مسلم بدون إيمان، فقد غلط، إلا في حالة المنافقين، فقد عاملهم رسول الله ﷺ كمسلمين بما ظهر له من أعمالهم، ووكل سرائرهم إلى الله.

فقولهم: إن كل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً، هو خطأ، فلا إسلام بدون إيمان، إلا على رأي المرجئة، والجهمية، القائلين: بأن الإيمان مجرد التصديق، فلا يُدْخِلون الأعمال في مسمى الإيمان.

وأهل السنة يقولون: الإيمان قول وعمل واعتقاد.

الاستثناء في الإيمان دون الإسلام:

جرى في العقائد السلفية: القول بالاستثناء في الإيمان دون الإسلام، بحيث يقول الإنسان: أنا مؤمن إن شاء الله. قال السفاريني في عقيدته:

ونحن في إيماننا نستثني من غير شك فاستمع واسْتَبِنْ

وهذا الاستثناء في الإيمان ليس له أصل، غير أن العلماء أدخلوه في العقيدة، فأخذوا يتناقلونه بينهم، فمتى علم الرجل من نفسه أنه يؤمن بالله، ويصدق بوجود الرب وملائكته، وكتبه، ورسله، ويؤمن بالبعث بعد الموت، وبالجنة، والنار، فلا مانع من إخباره بإيمانه على سبيل الجزم، لقوله سبحانه: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا

وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[1].

ولم يقل: قولوا آمنا بالله إن شاء الله. وقد قال النبي ﷺ: «**كيف أصبحت يا حارثة؟** قال: أصبحت مؤمناً حقاً. فقال: **انظر ما تقول، فإن لكل قول حقيقته.** فقال: يا رسول الله. عَزَفَتْ نفسي عن الشهوات، وأسهرت ليلي بالقيام، وأظمأت نهاري بالصيام، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يتنعمون فيها، وإلى أهل النار في النار يعذبون فيها. فقال: **عبد نوّر الله قلبه**». قال ابن رجب روي هذا الحديث متصلاً ومرسلاً، والمرسل أصح.

ولما قدم وفد الأزد على النبي ﷺ قال لهم: (**ما أنتم؟**) قالوا: نحن مؤمنون. فقال: (**إن لكل قول حقيقة، فما حقيقة إيمانكم؟**) قالوا: خمس عشرة خصلة يا رسول الله». فذكروا له شرائع الإسلام الخمس، وأركان الإيمان، وما تخلقوا به من فعل الخير، ذكره العلامة ابن القيم، في كتاب «الوفود» من زاد المعاد.

والشاهد: أن النبي ﷺ لم ينكر عليهم جزمهم بالإيمان، ولأن الاستثناء في الشيء الموجود، أو الماضي لا محل له، فلا يسوغ أن يقول: صمت أمس الماضي إن شاء الله، ولا تصدقت بصدقة في الأمس الماضي إن شاء الله؛ إذ لا محل للاستثناء هنا، وإنما يستثنى في الأمر المستقبل الذي قد يفعله، ويعان عليه، أو لا يفعله، ولا يعان عليه، كما قال سبحانه: ﴿**وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ**﴾[2]، وقال: ﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ**﴾[3]. والنبي ﷺ قال: (**والله لأغزون قريشاً، والله لأغزون قريشاً**) وفي الثالثة قال: (**إن شاء الله**).

---

(١) سورة البقرة: ١٣٦.

(٢) سورة الكهف: ٢٣، ٢٤.

(٣) سورة الفتح: ٢٧.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: للعلماء في الاستثناء في الإيمان ثلاثة أقوال: منهم من قال بوجوبه، ومنهم من قال بمنعه، ومنهم من قال بجواز الأمرين، إن شاء استثنى في الإيمان متى علم من نفسه صحة إيمانه، وإن شاء ترك. وهذا هو أعدل الأقوال.

توسط واو العطف بين الإسلام والإيمان:

قد أُشكل على بعض العلماء، توسط واو العطف بين الإسلام والإيمان في حديث جبريل، وكما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾[1]، فظنوا أن واو العطف في الحديث، وفي الآية، أنها تقتضي المغايرة، وبنوا على ذلك كون المسلمين غير المؤمنين، وهذا غير صحيح، فإن هذه عطف صفات، يجوز أن تتفق وتجتمع في موصوف واحد لا يتجزأ.

أما رأيته كيف عطف الصائمين على المسلمين. ولا إسلام بدون صيام، ومن استباح ترك الصيام كفر. وقال البغوي في شرح السنة(١/١٠): قد جعل النبي ﷺ الإسلام اسما لما ظهر من الأعمال، وجعل الإيمان اسما لما بطن من الاعتقاد، وليس ذلك؛ لأن الأعمال ليست من الإيمان، أو التصديق بالقلب ليس من الإسلام، بل ذلك تفصيل لجملة هي كلها شيء واحد، وجماعها الدين. اهـ

فعطف المؤمنين على المسلمين في الآية، وكذا عطف الإيمان على الإسلام في حديث جبريل، هو نظير عطف الأعمال الصالحات على الإيمان بالله في كثير من الآيات. كقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[2]، وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[3]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾[4]، وقوله: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا

(١) سورة الأحزاب: ٣٥.
(٢) سورة النور: ٥٥.
(٣) سورة البقرة: ٢٥.
(٤) سورة البينة: ٧.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[1]، لكون الإيمان: اعتقاد القلب. والأعمال الصالحة، عمل الجوارح، ولا بد من اتفاقهما في صحة الإسلام والإيمان.

وقد قلت: إن الإسلام بمثابة رأس الإنسان؛ لأن رأس الأمر الإسلام، والإيمان بمثابة القلب، فهما في جسم لا يتجزأ، يمد أحدهما الآخر بالصحة، أو السقم، أشبه الروح مع الجسد. وإذا بطل عمل أحدهما، بطل الآخر، فكما أنه لا يوجد جسد إنسان بلا روح، فكذلك لا يوجد إيمان بدون إسلام، فهما متلازمان، لا يفترقان. وأجمع كلمة تقال في التعريف بالإسلام وبالإيمان: إنهما قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان أخذها الناظم، فقال:

إيماننا قول وقصد وعمل يزيد بالتقوى وينقص بالزلل

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في كتاب (الإيمان): إن اسم الإيمان المطلق، هو بمثابة اسم الدين، فهو يشمل فعل الأوامر وترك النواهي. انتهى.

وقد أشكل على بعض العلماء قوله سبحانه: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾[2].

فاستدل بهذه الآية من يرى أن الإسلام غير الإيمان، وأن المسلمين غير المؤمنين.

وهذه الآية نزلت في أعراب الجزيرة، لما غشيهم جنود الصحابة، وخافوا أن يستأصلوهم بالقتل، أقبلوا وهم يقولون: آمنّا..آمنّا. قبل أن يعرفوا الإيمان، وقبل أن يدخل الإيمان في قلوبهم. وإنما قالوا: آمنّا خوفاً من السيف. ولهذا قال الله: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا - إلى حد الآن - وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ - أي إلى حد الآن) وعسى أن يدخل بعد حين، لأن «لمّا» تستعمل لنفي الحال فيما عسى أن يقع. وقد ترجم عليه البخاري في صحيحه بما يقتضي تفسيره وتوضيحه، فقال:

---

(١) سورة العصر. (٢) سورة الحجرات: ١٤.

(باب)

«إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة، وكان على الاستسلام، أو الخوف من القتل».

لقول الله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾[1] وإذا كان على الحقيقة فهو مثل قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[2]، ثم ذكر حديث سعد، وهو أن النبي ﷺ أعطى رجالاً، قال سعد، فقلت: يا رسول الله. مالك عن فلان؟ فوالله إني أراه مؤمناً؟! فقال: أو مسلماً. قال: ثم غلبني ما أجد، فقلت: يا رسول الله، مالك عن فلان. فوالله إني لأراه مؤمناً؟ فقال: أو مسلماً. ثم قال: (**إني لأعطي الرجل العطاء وغيره أحب إليّ منه كراهية أن يكبه الله في النار على وجهه**)[3].

فالنبي ﷺ أحب من سعد أن يقول: إني أراه مسلماً. فيصف هذا الرجل بأعماله الظاهرة المشاهدة، بخلاف وصفه بالإيمان الذي هو من أعماله الباطنة، والذي لا يطلع عليه إلا الله.

وهذا من حسن الأدب في التعبير، والنهي عن الغلو، والإفراط في المدح. وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال في صفة الأمانة: (**إنه ليأتي الرجل فيقال: ما أظرفه، وما أعقله، وما في قلبه مثقال ذرة من الإيمان..** أو كما قال)[4].

ونظير هؤلاء الأعراب، قصة بني جذيمة، حين غشيهم خالد بن الوليد، بجنوده، فأقبلوا يقولون: صبأنا.. صبأنا. ولم يحسنوا قول: أسلمنا، فقتلهم خالد، فبلغ النبي ﷺ، مقالتهم وقتلهم. فقال: (**اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد**).

إن الأعراب الذين مردوا على الشرك، وعبادة الأوثان. وإنكار وجود الرب، والتكذيب بالبعث بعد الموت، وبالجنة والنار، فهم كما أخبر الله عنهم، بقوله

---

(١) سورة الحجرات: ١٤.

(٢) سورة آل عمران: ١٩.

(٣) رواه البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص.

(٤) من حديث متفق عليه عن حذيفة بن اليمان.

سبحانه: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾(١). فهم يحتاجون في دخول الإيمان في قلوبهم إلى وقت يعرفون فيه حقيقة الإيمان، والعمل به، حتى تدخل محبته في قلوبهم، غير وقت هذا الإكراه بالسيف.

ولهذا سرعان ما ارتدوا عن دين الإسلام بعد موت النبي ﷺ لعدم دخول الإيمان في قلوبهم، الذي ينجم عنه الثبات على الإسلام، والاستقامة على صالح الأعمال.

وكل من تأمل القرآن، فإنه يجده مملوءاً بقرن الإيمان بصالح الأعمال؛ لكونه لا ينفع إيمان بدون عمل، كما أنه لا ينفع عمل بدون إيمان. يقول الله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾(٢).

وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٣)، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾(٤)، وقال: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾(٥)، وقال: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾(٦).

في كثير من الآيات بهذه الصفات يشق إحصاؤها، فعطف الأعمال الصالحات على الإيمان، هو نظير عطف المؤمنين على المسلمين في قوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾(٧)، ومثله حديث جبريل في صفة الإسلام، ثم صفة الإيمان، أشبه عطف الأعمال الصالحات على الإيمان في كثير

(١) سورة التوبة: ٩٧.
(٢) سورة البقرة: ٢٥.
(٣) سورة البقرة: ٨٢.
(٤) سورة البينة: ٧.
(٥) سورة العصر.
(٦) سورة التين: ٦.
(٧) سورة الأحزاب: ٣٥.

من الآيات؛ لكون الإيمان: هو اعتقاد وعمل، فلو أن رجلاً قال: أنا أومن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، وأن الجنة حق، وأن النار حق، ولكني لا أصلي، ولا أصوم، ولا أؤدي الزكاة، فإن هذا هو الكافر حقاً، ولا ينفعه هذا التصديق بدون عمل بموجبه؛ لأنه يعتبر - بأنه - مكذب لإيمانه.

وبعكسه، لو رأينا إنساناً يحافظ على الصلوات الخمس في أوقاتها، ويؤدي الزكاة الواجبة، ويصوم رمضان، ويفعل سائر شرائع الإسلام، ولكنه ينكر وجود الرب، وينكر وجود الملائكة، ويكذب بالبعث بعد الموت، ويكذب بالجنة والنار، فإن هذا كافر قطعاً، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ﴾(١)، وقوله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً﴾(٢).

لكون الشرك محبطاً لسائر الأعمال الخيرية، لكن الكافر متى عمل حسنة أطعم بها في الدنيا من صحة حال، وتكثير مال وعيال، وليس له في الآخرة من نصيب، وأما المؤمن فيطعم بحسنته في الدنيا، ويدخر ثوابها له في الآخرة. فيحصّل الحسنتين، ويفوز بالسعادتين، والمنافقون الذين هم في الدرك الأسفل من النار، كانوا يعملون أعمال الإسلام الظاهرة، ولكنهم يبطنون الكفر والنفاق، فعاملهم الرسول ﷺ كمعاملة المسلمين المؤمنين في النكاح، والتوارث، ووكل سرائرهم إلى الله.

والمقصود أن الإسلام والإيمان أنهما في الشخص جزء لا يتجزأ، أشبه الروح والجسد، فلا إسلام لمن لا إيمان له، ولا إيمان لمن لا إسلام له. وقد قال أبو طالب المكي: مثل الإسلام من الإيمان، كمثل الشهادتين، إحداهما مرتبطة بالأخرى في المعنى والحكم. فلو قال: أشهد أن لا إله إلا الله، ولا أشهد أن محمداً رسول الله - لم يصح إسلامه - ولو قال: أشهد أن محمداً رسول الله، ولا أشهد أن لا إله إلا الله - لم يصح إسلامه. إذ إحداهما مرتبطة بالأخرى كشيء واحد.

---

(١) سورة إبراهيم: ١٨.

(٢) سورة الفرقان: ٢٣.

وأما تفرقة النبي ﷺ في حديث جبريل بين الإسلام والإيمان، فإن ذلك تفصيل لوظائف أعمال الجوارح والقلوب، على ما توجبه هذه المعاني على كل شخص. فحرف الواو المتوسطة بين الإسلام والإيمان، هو حرف عطف صفات تتفق في موصوف واحد بدون اختلاف وتضاد، فليس فيها دليل على أن الإيمان والإسلام مختلفان في الحكم؛ إذ أن الإيمان بالقلب لا ينفع إلا بالإسلام بالجوارح، وإسلام الجوارح لا ينفع إلا بالإيمان بالقلب، أشبه الرأس والقلب، فلا يوجد شخص برأس دون قلب، ولا بقلب دون رأس.

فهذه التوسطة بين الإسلام والإيمان في حديث جبريل، وفي قوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[1]، هي نظير الواو في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾[2].

أول اختلاف وقع زمن الصحابة في مرتكب الكبائر:

إن مسائل الإيمان والإسلام. والكفر والنفاق، هي مسائل عظيمة جداً؛ لأن الله سبحانه: علق بهذه الأسماء مسمياتها من الأحكام ومتعلقاتها من السعادة والشقاوة، واستحقاق الفوز بالجنة، والنجاة من النار.

والاختلاف في مسمياتها هو أول اختلاف وقع في هذه الأمة، وهو خلاف الخوارج للصحابة، حيث كانوا يكفرون بالذنب، وأخرجوا عصاة الموحدين من الإسلام بالكلية، وأدخلوهم في حظيرة الكفر، وعاملوهم معاملة الكفار؛ من استحلالهم دماء المسلمين وأموالهم، وتأوّلوا قوله سبحانه: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾[3].

وجماعة أهل السنة يقولون: هذا جزاؤه إن جازاه. ولكن قد يتخلف هذا الجزاء بمقتضى عفو الله عنه، أو بالتوبة المقبولة، أو الحسنات الماحية، أو المصائب المكفرة، ومن نوقش الحساب عذب.

---

(١) سورة الأحزاب: ٣٥.
(٢) سورة البينة: ٧.
(٣) سورة النساء: ٩٣.

ومثله حديث: (**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**)[1].

فهذا الحديث، مما استدل به الخوارج، وهو من أحاديث الوعيد تُمر كما جاءت، وهو نفي لكمال الإيمان، وليس بنفي لأصل الإيمان؛ لكون نفي البعض لا يستلزم نفي الكل، ولأن الناس متفاوتون في الأعمال، فمنهم كامل الإيمان، ومنهم ناقص الإيمان، ونحن إذا تكلمنا في الإسلام والإيمان، أو في المسلمين والمؤمنين، فإنما نتكلم على حالة الناس الظاهرة حسب القاعدة.

فمن يتسمى بالإسلام أو الإيمان، وهو لا يصلي الصلوات الخمس المفروضة، ولا يؤدي الزكاة الواجبة، ولا يصوم رمضان، فلا شك أن إسلامه مزيف مغشوش لا حقيقة له، ما هو إلا إسلام باللسان، يكذبه الحس والوجدان، والسنّة والقرآن، ومن ادعى ما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان، يقول الله: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ**﴾[2].

ومثله قول النبي ﷺ: (**لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه**»[3]، **وكذلك قوله: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**)[4]، وكله نفي لكمال الإيمان.

ومثله قوله ﷺ: (**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم**) رواه أهل السنن، من حديث ابن عمر وفضالة بن عبيد، فإنه يعني بذلك: كمال الإسلام والإيمان وإلا: فمن المعلوم أن السلامة من اليد واللسان، والأمن على الدماء والأموال، هو أمر يتصف به المسلم والكافر.

نظيره حديث: (**لا صلاة بحضرة طعام، ولا وهو يدافعه الأخبثان**)[5] فهذا نفي لكمال الصلاة أيضاً، وليس بنفي للصلاة عن أصلها. فقد قال الفقهاء بجواز صلاته، وكونها تؤدي فريضته.

فتشبث الخوارج بمثل هذه الآية السابقة، وهذه الأحاديث.

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة.
(٢) سورة المائدة: ٤١.
(٣) رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك.
(٤) رواه البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه.
(٥) رواه مسلم عن عائشة، رضي الله عنها.

ثم حدث بعدهم خلاف المعتزلة في قولهم بالمنزلة بين المنزلتين - يعني أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر ولا مسلم -.

ثم حدث خلاف المرجئة، وقولهم: إن الفاسق مؤمن كامل الإيمان.

﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ﴾[1] فقالوا: المسلم مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، وربما قالوا: المسلم العاصي ناقص الإيمان.

هل المنافقون داخلون في مسمى المؤمنين كدخولهم في مسمى المسلمين؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في كتاب (الإيمان)، ص١٢٥: إن الخطاب بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يدخل فيه كل من أظهر الإيمان من مؤمن، ومنافق في الباطن. قال: وحقيقة الأمر؛ أن من لم يكن من المؤمنين حقاً، يقال إنه مسلم، ومعه إيمان يمنعه من الخلود في النار، وهذا أمر متفق عليه بين أهل السنة.

لكن هل يطلق عليه اسم الإيمان؟ هذا هو الذي تنازعوا فيه، فقيل: يقال مسلم ولا يقال مؤمن، وقيل: بل يقال مؤمن.

والتحقيق أن يقال: إنه مؤمن ناقص الإيمان، فاسق بكبيرته، فلا يعطى اسم الإيمان المطلق كله، ولا يسلب عنه كله. انتهى.

وقد قال السفاريني في عقيدته:

لا يخرج المرء من الإيمان ... بموبقات الذنب والعصيان

وواجب عليه أن يتوبا ... من كل ما جرَّ عليه حوبا

ومن يمت ولم يتب من الخطا ... فأمره مفوض لذي العطا

فإن يشأ يعفو وإن شاء انتقم ... وإن يشأ أعطى وأجزل النعم

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ - أي للإيمان، فيفرح به ويندفع إلى القيام بفرضه ونفله، وصلاته وزكاته، وصيامه - وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا﴾[2] - أي ضيقاً بذكر الإسلام، حرجاً من أمره ونهيه، وصلاته، وزكاته، وصيامه ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة: ٢١٣. (٢) سورة الأنعام: ١٢٥. (٣) سورة الزمر: ٢٢.

وإذا حلت الهداية قلباً نشطت في العبادة الأعضاءُ

وكان من دعاء النبي ﷺ على الجنازة أنه يقول: (**اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام والسنة- أي على العمل بشرائع الإسلام والسنّة - ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان**) لكونه إذا مات انقطع عنه العمل، وبقي معه الإيمان.

يبقى معنا آية هي موضع إشكال عند بعض العلماء الذين يقولون بأن المسلمين غير المؤمنين، وهي قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(١).

فظنوا أن المسلمين غير المؤمنين، وأن المؤمنين غير المسلمين، والقرآن ينوّع التعبير عن المسلمين والمؤمنين، فأحياناً يسميهم بالمسلمين في كثير من آيات القرآن المبين، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(٢).

وقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(٣).

وقوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(٤).

وفي كثير من الآيات يشق إحصاؤها، وقالوا: الإسلام هو استسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك، ومثله التعبير بالإسلام والإيمان، كقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾(٥) - أي الإيمان - وقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٦).

---

(١) سورة الذاريات: ٣٥، ٣٦.
(٢) سورة آل عمران: ١٠٢.
(٣) سورة آل عمران: ٦٤.
(٤) سورة البقرة: ١٣٢.
(٥) سورة آل عمران: ١٩.
(٦) سورة آل عمران: ٨٥.

فالمسلمون هم المؤمنون، والمؤمنون هم المسلمون، لأن الاسمين، صفة لأمّة محمد ﷺ التابعين لدينه، كما في الحديث في قصة وقوع التزاحم على الماء بين المهاجرين والأنصار، فقال المهاجري: يا للمهاجرين، وقال الأنصاري: يا للأنصار، فغضب رسول الله ﷺ وقال: **(أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، اتركوها ذميمة، وادعوا بدعوى الله سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله)**.

فهذه الكلمات: هي التي تجمع شمل المسلمين، ويكونون بها عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم، فقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[1]، فيحتمل أنه أراد بالمسلمين: المستسلمين بالخضوع، والطاعة، للدعوة، وهو معنى ما فسره البخاري من قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾[2] - أي استسلمنا - وقد سمى الله الإسلام سلماً.

ويحتمل أنه من تنويع الاسم الذي كثر وروده في القرآن، كقوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[3]، فعبر عن الإسلام بالإيمان.

زيادة الإيمان ونقصانه:

وقد اتفق أهل السنة على أن الإيمان يزيد وينقص - أي يزيد بالطاعة، وبتدبر القرآن، والعمل به، وبالذكر، والموعظة - وينقص بالمعصية، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[4].

---

(١) سورة الذاريات: ٣٥، ٣٦.
(٢) سورة الحجرات: ١٤.
(٣) سورة الحجرات: ١٧.
(٤) سورة الأنفال: ٢ - ٤.

وقال: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾(١).

وقد وجد الصحابة هذا الأمر في أنفسهم حتى ظنوه نفاقاً؛ لكون النفاق مخالفة السر للعلانية، فروى الإمام أحمد، والترمذي، وابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله. مالنا إذا كنا عندك رقت قلوبنا، وزهدنا في الدنيا، وكنا من أهل الآخرة، فإذا خرجنا من عندك فآنسنا أهلنا، وشممنا أولادنا، أنكرنا أنفسنا؟ فقال رسول الله ﷺ: (**لو أنكم إذا خرجتم من عندي كنتم على حالكم، لزارتكم الملائكة في مجالسكم، وطرقكم، ولو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، ثم يستغفرون، فيغفر لهم**)(٢).

وجاء حنظلة إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، نافق حنظلة، قال: وما ذاك؟ فقال: نكون عندك، تُذكِّرنا بالجنة والنار كأنهما رأي عين، فإذا خرجنا من عندك، فآنسنا أهلنا، وشممنا أولادنا، نسينا كثيراً مما تقول! فقال: (**أما إنكم لو تكونون على الحال التي تقومون بها من عندي لزارتكم الملائكة في مجالسكم وطرقكم، ولكن يا حنظلة، ساعة وساعة**) رواه مسلم في صحيحه.

ثم إن الناس يتفاوتون في الإيمان، وفي الثبات عليه، وحسن الاستقامة فيه، حتى يكون منهم: من إيمانه كالجبل في الثبات والرسوخ، كما قيل:

تزول الجبال الراسيات وقلبه على العهد لا يلوي ولا يتلعثم

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾(٣).

---

(١) سورة التوبة: ١٢٤، ١٢٥.

(٢) رواه الإمام أحمد والترمذي عن أبي هريرة بلفظ آخر، ولكن رواية أبي يعلى عن أنس بإسناد صحيح «**لو أنكم إذا خرجتم من عندي تكونون على الحال الذي تكونون عليه لصافحتكم الملائكة بطرق المدينة**».

(٣) سورة إبراهيم: ٢٧.

والقول الثابت هو الإيمان الراسخ المستلزم للعمل الصالح.

ومن الناس من إيمانه مثقال ذرة، ينقدح الشك في دينه بأول عارض من شبهة، فهم الذين عناهم القرآن بقوله: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ** - أي على طرف - **فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**﴾[1]، نزلت في الأعراب، كان أحدهم إذا دخل في الإسلام، فإن ولد له ولد ونتجت إبله وخيله، ونزل به الغيث، قال: هذا دين طيب، واطمأن به، وإن أصيب بمرض، أو مات أحد من أهله، أو من إبله، أو أصيب الناس بالجدب، قال: هذا دين سيء، وتشاءم به وارتد عنه؛ لكونه لم تدخل بشاشة الإيمان في قلبه، ولم يذق حلاوته، فسرعان ما ارتد عنه سخطة له.

وفي الحديث: (**إن الرجل ليخرج من بيته ومعه دينه، فيرجع إليه وما معه من دينه شيء**).

وأخبر النبي ﷺ بأنها ستكون فتن كقطع الليل المظلم، يصبح فيها الرجل مؤمناً، ويمسي كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا[2]، ولن ننسى النص الثابت في كفر تارك الصلاة، فروى مسلم عن جابر أن النبي ﷺ قال: (**بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**).

وعن بريدة، أن النبي ﷺ قال: (**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، من تركها فقد كفر**) رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وصححه النسائي، وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه وقال: صحيح ولا نعلم له علة.

ويدل له ما رواه الترمذي عن معاذ أن النبي ﷺ قال: (**رأس الأمر: الإسلام، وعموده: الصلاة**). وعمود الشيء هو: قوامه الذي يستقيم به، ويسقط بتركه، ولا ينبغي أن ننخدع بمن قال: كفر دون كفر، فإن هذا من تحريف الكلم عن مواضعه؛ إذ

---

(١) سورة الحج: ١١.

(٢) من حديث رواه مسلم عن أبي هريرة بلفظ، «**بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمناً، ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً، ويصبح كافراً، يبيع أحدهم دينه بعرض من الدنيا**»، وكذا رواه الإمام أحمد في مسنده.

هذا من الأمر الصريح الذي لا يقبل التأويل، ومتى أجمع العلماء على كفر من استباح ترك الصلاة، أو الزكاة، أو الصيام، بلا خلاف، فإن العارف بوجوبها، ثم يصر مستمراً على تركها، أشد كفراً وعناداً؛ إذ كفره من جنس كفر إبليس، وكفر اليهودمع العلم أنه لا يصر مستكبراً عن فعلها، مؤمن بوجوبها أبداً، ولهذا كان السلف الصالح يسمونها: الميزان، فإذا أرادوا أن يبحثوا عن دين إنسان، سألوا عن صلاته، فإن حدثوا بأنه ذو حظ من المحافظة على الصلاة في الجماعات، علموا بأنه ذو دين، وشهدوا له بموجبه، وإن حدثوا بأنه لا حظ له من الصلاة، علموا بأنه لا دين له ومن لا دين له، جدير بكل شر، بعيد عن كل خير، وعادم الخير لا يعطيه، وكل إناء ينضح بما فيه ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾[1].

خسر الذي ترك الصلاة وخابا ... وأبى معاداً صالحاً ومثابا

إن كان يجحدها فحسبك أنه ... أضحى بربك كافراً مرتابا

أو كان يتركها لنوع تكاسل ... غطى على وجه الصواب حجابا

فالشافعي ومالك رأيا له ... إن لم يتب حد الحسام عقابا

قال محمد بن نصر المروزي: سمعت إسحاق يقول: صح عن النبي ﷺ: «أن تارك الصلاة كافر». وكذلك كان رأي أهل العلم من لدن النبي ﷺ أن تارك الصلاة عمداً من غير عذر حتى يذهب وقتها كافر.

وقال الحافظ عبدالعظيم المنذري: قد ذهب جماعة من الصحابة ومن بعدهم إلى تكفير من ترك الصلاة متعمداً لتركها حتى يخرج جميع وقتها.

منهم - أي من الصحابة - عمر بن الخطاب، وعبدالله بن مسعود، وعبدالله بن عباس، ومعاذ بن جبل، وجابر بن عبدالله، وأبو الدرداء.

ومن غير الصحابة: أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وعبدالله بن المبارك، والنخعي، والحكم بن عيينة، وأيوب السختياني، وأبو داود الطيالسي، وأبو

(١) سورة التوبة: ١١.

بكر بن أبي شيبة، وزهير بن حرب، وغيرهم. ذكره المنذري في الترهيب عن ترك الصلاة.

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله -: لا يختلف المسلمون، أن ترك الصلاة المفروضة عمداً من أعظم الذنوب، وأكبر الكبائر، وأن إثمه عند الله أعظم من إثم قتل النفس، وأخذ الأموال، ومن إثم الزنا، والسرقة، وشرب الخمر، وأنه متعرض لسخط الله، وخزيه، وعقوبته في الدنيا والآخرة.

قال: وأفتى سفيان الثوري، وأبو عمرو الأوزاعي، وعبدالله بن المبارك، وحماد بن زيد، ووكيع بن الجراح، ومالك بن أنس، والشافعي، وأحمد، وإسحاق بن راهويه، وأصحابهم: بأنه يقتل متى تركها عمداً من غير عذر ودعي إليها، وقال: لا أصلي. انتهى من كتاب (الصلاة).

وقد ترجم على معناه البخاري في صحيحه، وقال: «باب خوف المؤمن من أن يَحْبَطَ عمله وهو لا يشعر»[1]، ثم ذكر النفاق، وكونه لا يخافه إلا مؤمن، وما أمنه إلا منافق.

انقلاب الإيمان نوراً لأهله يوم القيامة:

ثم إن هذا الإيمان ينقلب نوراً على أهله بحسبه يوم القيامة، فيكون نوراً على الصراط المعروض على متن جهنم - كالخشبة المعروضة فوق القليب - وهو دحض مزلة تجري بالناس أعمالهم عليه، فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كأجاويد الخيل، والإبل. ومع كونه دحض مزلة وبجانبه كلاليب مثل الشوك تخطف الناس، ومع هذا: فإنه مظلم، ويُعطى الناس نورهم على حسب إيمانهم، فمنهم من نوره كالجبل. ومنهم من نوره كالنخلة، ومنهم من نوره كالسراج. ومنهم من نوره على طرف إبهام قدمه، يتّقد مرة وينطفىء أخرى. يقول الله: ﴿**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي**

(١) كتاب الإيمان من صحيح البخاري باب رقم ٣٦. والأثر الذي ذكر رواه البخاري معلقاً بصيغة التمريض عن الحسن البصري، قال: ويذكر عن الحسن: ماخافه إلا مؤمن، وما أمنه إلا منا فق.

مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾[1]، ﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

ويُعطى المنافقون نوراً يدخلون به طرف الصراط، ثم ينطفىء عنهم، فعند ذلك يقولون للمؤمنين ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[3].

فهذه حالة المنافقين، لما كان إيمانهم خداعاً، فلا صحة ولا أصل لحقيقته، فعند ذلك خانهم أحوج ما كانوا إليه؛ لأنه ليس معهم إيمان حقيقي حتى يكون لهم نوراً.

ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[4]. وفي مثل حديث جبريل[5]، حين فسر رسول الله ﷺ فيه الإسلام، ثم فسر الإيمان، بتوسط واو العطف بينهما، هو نظير توسط واو العطف بين الإيمان وبين الأعمال الصالحات في كثير من الآيات، كقوله: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[6].

وشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - هو من أطول الناس باعاً، وأوسعهم اطلاعاً في هذه المسألة، وفي غيرها من سائر العلوم، والفنون، وما معرفتنا بالنسبة إلى سعة علمه، إلا بمثابة الطفل الصغير بين يدي العالم الكبير.

غير أن العلماء قد اتفقوا على أنه لا يرد الحق الواضح لانفراد قائله، كما لا يقبل الباطل لكثرة ناقله؛ إذ أن الحق فوق قول كل أحد.

---

(١) سورة الحديد: ١٢.
(٢) سورة التحريم: ٨.
(٣) سورة الحديد: ١٣ - ١٥.
(٤) سورة الأحزاب: ٣٥.
(٥) حديث عمر: «بينما نحن جلوس عند رسول الله....» رواه مسلم.
(٦) سورة التين: ٦.

لهذا رأينا شيخ الإسلام ابن تيمية قد اختلفت أقواله في تفسير الإيمان، والإسلام. فأحياناً يقول بوجود مسلم ليس بمؤمن، ويقول بالاستثناء في الإيمان دون الإسلام، ويقول على حديث (**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**)[1]، بأنه يخرج من دائرة الإيمان إلى دائرة الإسلام، ويستشهد لذلك بقوله سبحانه: ﴿ **قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا**﴾[2]، وبحديث سعد، حين قال للنبي ﷺ: مالك عن فلان، فوالله إني لأراه مؤمناً. فقال: أو مسلماً»[3].

وبحديث جبريل، مما يدل بزعمه على انفراد الإسلام على الإيمان، ويرجح هذا القول، وهذا الاعتقاد، وينسبه إلى الإمام أحمد، وإلى كثير من العلماء، وهذا هو الذي اعتمد القول بصحته، واستقر عليه رأيه، وروايته.

وأحياناً يرجح القول بأنه لا يوجد مسلم، ولا إسلام إلا بإيمان، وأنه لا يوجد مسلم إلا ومعه شيء من الإيمان.

ويفسر حديث «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» المار ذكره وسنده، أنه يعبر عنه بأنه مؤمن ناقص الإيمان، أو يقال: إنه مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته.

ويقول: إن الإيمان بمثابة اسم الدين، فيشمل جميع المأمورات، واجتناب المنهيات. ومرة قال: إن الإسلام والإيمان بمثابة الروح مع الجسد، ويستشهد لصحة ذلك بأقوال من يرى صحته، ووجوب اعتقاده من سائر العلماء القائلين به.

فمن ذلك ما نقله عن الإمام محمد بن نصر، في ص١٨٧ من كتاب (الإيمان) حول الآية ﴿**فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا**﴾[4].

فحكم سبحانه: بأن من أسلم، فقد آمن واهتدى، ومن آمن: فقد اهتدى، فسوّى بينهما في الاهتداء. وأن التفرقة بين الإسلام، والإيمان لا دليل عليها، وقد

---

(١) من حديث رواه البخاري ومسلم و النسائي عن أبي هريرة.
(٢) سورة الحجرات: ١٤.
(٣) من حديث رواه البخاري ومسلم.
(٤) سورة البقرة: ١٣٧.

بيّنا خطأ تأويلهم، والحجج التي احتجوا بها من الكتاب والأخبار، في محاولتهم التفرقة بين الإسلام والإيمان. وكونه لا صحة للاستدلال بها على المعنى الذي أراده. والحق أن الإسلام والإيمان شيء واحد.

وقال البغوي، في شرح السنة، على حديث جبريل، وفيه ذكر الإسلام والإيمان، فقال: إن النبي ﷺ جعل الإسلام اسماً لما ظهر من الأعمال. وجعل الإيمان اسما لما بطن من الاعتقاد. وليس ذلك لأن الأعمال ليست من الإيمان، أو أن التصديق بالقلب ليس من الإسلام، وإنما ذلك تفصيل للجملة. وإلا فهي شيء واحد، وجماعها الدين. انتهى.

وحكى شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في كتاب (الإيمان) عن محمد ابن نصر المروزي أنه قال: إن الإسلام هو الإيمان، وإن المؤمنين هم المسلمون. وهذا نصه:

قال محمد بن نصر المروزي: «قالت طائفة من العلماء: وهم الجمهور الأعظم من أهل السنّة والجماعة، وأصحاب الحديث: إن الإيمان الذي دعا الله العباد إليه، وافترضه عليهم، وارتضاه لهم ديناً، هو الإسلام الذي جعله الله ديناً، وارتضاه لعباده، فقال: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾(١).

وقال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾(٢)، وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٣)، وهو ضد الكفر الذي سخطه، وجعله محبطاً لسائر الأعمال الصالحات، فقال: ﴿وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾(٤)، وقال: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾(٥)، وقال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾(٦)، فمدح الله الإسلام، بمثل ما مدح به الإيمان، ثم قال: ألا ترى أن أنبياء الله ورسله ترغبوا إليه وسألوه إياه.

---

(١) سورة المائدة: ٣.
(٢) سورة آل عمران: ١٩.
(٣) سورة آل عمران: ٨٥.
(٤) سورة الزمر: ٧.
(٥) سورة الأنعام: ٢٥.
(٦) سورة الزمر: ٢٢.

فقال إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾(١). وقال يوسف: ﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾(٢).

وقال: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(٣).

وقال: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(٤).

وقال: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا... إلى قوله: وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(٥).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في تعقيبه على هذا الكلام، قلت: مقصود محمد بن نصر - رحمه الله - أن المسلم الممدوح، هو المؤمن الممدوح، وأن كل مؤمن، فهو مسلم، فلا بد أن يكون معه إيمان. وهذا صحيح، وهو متفق عليه. انتهى، ص١٩٠، من كتاب (الإيمان).

وقال أبو طالب المكي(٦): مباني الإسلام الخمسة، يعني: الشهادتين، والصلوات الخمس، والزكاة، وصيام شهر رمضان، والحج. قال وأركان الإيمان سبعة، يعني: الخمسة المذكورة في حديث جبريل، والإيمان بالقدر، والإيمان بالجنة والنار. وكلاهما قد رويت في حديث جبريل كما سنذكره إن شاء الله.

قال: وقد قال قائلون: إن الإيمان هو الإسلام، وهذا قد أذهب التفاوت والمقامات.

وقال آخرون: إن الإسلام غير الإيمان، وهؤلاء قد أدخلوا التضاد والتغاير، فهذه مسألة مشكلة تحتاج إلى شرح وتفصيل، فمثل الإسلام من الإيمان، كمثل

---

(١) سورة البقرة: ١٢٨ .
(٢) سورة يوسف: ١٠١ .
(٣) سورة البقرة: ١٣٢ .
(٤) سورة البقرة: ١٣٦ .
(٥) سورة آل عمران: ٨٤ .
(٦) حكاه عنه شيخ الإسلام ابن تيمية، ص ١٧٢، من كتاب الإيمان.

الشهادتين، إحداهما من الأخرى في المعنى والحكم، فشهادة الرسول ﷺ غير شهادة الوحدانية، فهما شيئان في الأعيان، وإحداهما مرتبطة بالأخرى في المعنى والحكم، كشيء واحد، كذلك الإيمان والإسلام، أحدهما مرتبط بالآخر، فهما كشيء واحد، لا إيمان لمن لا إسلام له، ولا إسلام لمن لا إيمان له؛ إذ لا يخلو المسلم من إيمان به يصح إسلامه، ولا يخلو المؤمن من إسلام به يحقق إيمانه. من حيث اشترط الله للأعمال الصالحة: الإيمان، واشترط للإيمان: الأعمال الصالحة، فقال في تحقيق ذلك: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾[1].

وقال في تحقيق الإيمان بالعمل: ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾[2].

فمن كان ظاهره أعمال الإسلام، ولا يرجع إلى عقود الإيمان بالغيب فهو منافق نفاقاً ينقل عن الملة، ومن كان عقده الإيمان بالغيب، ولا يعمل بأحكام الإيمان، وشرائع الإسلام، فهو كافر كفراً لا يثبت معه توحيد، ومن كان مؤمناً بالغيب، مما أخبرت به الرسل عن الله، عاملاً بما أمر الله، فهو مؤمن مسلم.

وقد أجمع أهل القبلة على أن كل مؤمن مسلم، وكل مسلم مؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، قال: ومثل الإيمان من الأعمال: كمثل القلب من الجسم، لا ينفك أحدهما عن الآخر، ولا يكون ذو جسم حي لا قلب له، ولا ذو قلب بغير جسم، فهما شيئان منفردان، وهما في الحكم والمعنى ينفصلان، ومثلهما أيضاً، مثل حبة لها ظاهر وباطن، وهي واحدة لا يقال حبتان لتفاوت صفتهما.

قال ابن القيم في كتاب (الفوائد)، صفحة ٨٤: الإيمان له ظاهر وباطن وظاهره: قول اللسان، وعمل الجوارح، وباطنه: تصديق القلب، وانقياده ومحبته، فلا ينفع ظاهر لا باطن له وإن حقن به الدماء، وعصم به المال والذرية. ولا يجزىء باطن لا ظاهر له إلا إذا تعذر بعجز، أو إكراه، وخوف هلاك. فتخلف العمل ظاهراً

---

(١) سورة الأنبياء: ٩٤ .

(٢) سورة طه: ٧٥ .

مع عدم المانع، دليل على فساد الباطن وخلوّه من الإيمان، ونقصه دليل نقصه، وقوّته دليل قوّته، فالإيمان: قلب الإسلام ولبّه، واليقين: قلب الإيمان ولبّه، وكل علم وعمل لا يزيد الإيمان واليقين قوة فمدخول. وكل إيمان لا يبعث على العمل فمدخول» انتهى.

فكذلك أعمال الإسلام، فالإسلام هو ظاهر الإيمان، وهو من أعمال الجوارح، والإيمان باطن الإسلام، وهو من أعمال القلوب.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: (**الإسلام علانية، والإيمان بالقلب**) وفي لفظ (**والإيمان سر**). فالإسلام: أعمال الإيمان، والإيمان: عقود الإسلام، فلا إيمان إلا بعمل، ولا عمل إلا بعقيدة. انتهى.

ثم نقول للذين يتعصبون بجواز وجود مسلم ليس بمؤمن: أليس المسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؟ فسيقولون: نعم؛ لأن الشهادتين من أعمال الإسلام الظاهرة، فمتى ثبت الأمر بذلك، فإنهم مؤمنون بشهادة رسول الله ﷺ لهم في قوله: (**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً**)[1].

ثم يقال: هل هؤلاء المسلمون يصلون لله، أو للصنم؟ فإن قالوا: بل يصلون لله. فيقال: هل يتوضؤون لصلاتهم؟ فإن قالوا: نعم، فهم كحالة المسلمين في سائر أعمالهم الظاهرة. فيقال: إن معهم من الإيمان بحسبهم وبشهادة رسول الله ﷺ لهم في قوله: (**استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**)[2].

فمتى كان يفتتح صلاته بالتكبير، ويقول: الله أكبر، فهذا من الإيمان. ثم يركع حانياً ظهره لله رب العالمين، فهذا من الإيمان، ثم يسجد لله، ويضع وجهه الذي هو أعز شيء لديه في الأرض، فهذا من الإيمان بالله.

ثم إننا رأينا من يقول بوجود مسلم ليس بمؤمن، ويستدل بقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، ومسلم، والترمذي، عن العباس بن عبدالمطلب.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده. وابن ماجه، والحاكم، والبيهقي في الشعب عن ثوبان مولى المصطفى ﷺ، والبيهقي في السنن، والطبراني، عن ابن عمرو بن العاص.

أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾(١).

وهذا الاستدلال واقع في غير موقعه الصحيح، فإن هؤلاء الأقسام كلهم في الجنة بفحوى القرآن، والدلائل من السنة.

ومن قال من العلماء، إن هؤلاء الأقسام الثلاثة، هم بمثابة الأقسام الثلاثة المذكورين في سورة الواقعة وهم: أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة والسابقون السابقون، فقوله خطأ؛ إذ الآيات في سورة الواقعة: صريحة؛ لأن أصحاب المشأمة: هم أهل النار بالنص الثابت بقوله سبحانه في آخر سورة الواقعة: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾(٢).

فهذه الآية الصريحة في كون القسم الثالث، الذين هم أصحاب المشأمة، هم من الكافرين، المكذبين بالقرآن، وبالرسول، بخلاف الآية التي نحن بصدد تفسيرها من سورة فاطر.

وأن الأقسام الثلاثة كلهم من أمّة محمد ﷺ ومن أهل الجنة، كما حقق ذلك ابن عباس في تفسيره، وعائشة أم المؤمنين، حين سئلت عن تفسير هذه الآية.

وقد حقق ذلك ابن كثير في تفسيره، حيث قال شارحاً هذه الآية، يقول: ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم، المصدّق لما بين يديه من الكتب: الذين اصطفينا من

(١) سورة فاطر: ٣٢-٣٦.
(٢) سورة الواقعة: ٨٨ - ٩٤.

عبادنا، وهم هذه الأمّة، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع، فقال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾: وهو المفرّط في فعل الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات. ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾: وهو المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات. ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: وهو الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرّمات، والمكروهات، وبعض المباحات.

قال ابن عباس: هم أمّة محمد ﷺ أورثهم الله كل كتاب أنزله، فظالمهم يغفر له، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب.

وروي عن ابن عباس أيضاً، قال: السابق بالخيرات، يدخل الجنة بغير حساب. والمقتصد، يدخل الجنة برحمة الله. والظالم لنفسه، هم وأصحاب الأعراف، يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ.

وكذا روي عن غير واحد من السلف: أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين على ما فيه من عوج وتقصير. انتهى. -

والصحيح: أن الظالم لنفسه من هذه الأمة، كما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ من طريق يشد بعضها بعضاً. من ذلك ما رواه الإمام أحمد، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. فأما الذين سبقوا، فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب. وأما الذين اقتصدوا، فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر، ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾.

وأيضاً ما رواه أبو داود الطيالسي، عن الصلت بن دينار بن الأشعث، عن عقبة ابن صهبان الهنائي، قال: سألت عائشة رضي الله عنها، عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا.. الآية﴾، فقالت لي: يا بني. هؤلاء في الجنة، أما السابق بالخيرات، فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ وشهد له رسول الله بالجنة.

وأما المقتصد، فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق بهم. وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم. قال: فجعلت نفسها رضي الله عنها معنا. وهذا منها رضي الله عنها، من باب الهضم، والتواضع. وإلا فهي من أكبر السابقين بالخيرات. لأن فضلها على النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام.

هذا: وقد سيقت أحاديث أخرى، تدل على أن الأصناف الثلاثة المذكورة في الآية كلهم في الجنة. كما رجح ذلك ابن جرير في التفسير.

وفحوى الآية، تدل على ذلك بالصراحة، وأنهم من هذه الأمّة، وكلهم في الجنة.

فذكر سبحانه وراثتهم للكتاب، وهو منزلة عالية، وصفة سامية. ثم ذكر أنه - جلَّ وعلا - اصطفاهم. والاصطفاء: هو الصفوة من الشيء. فهم من صفوة الناس. ثم قال: - من عبادنا - فأضافهم إضافة تشريف إلى نفسه الكريمة. ثم ختم الآية بقوله تعالى: ﴿**جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا**﴾، ولم يستثن منهم الظالم لنفسه؛ لأن الناس كلهم ظالم لنفسه، وفي الدعاء المأثور، أن النبي ﷺ كان يقول: (**اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم**)[1]، وقد قال الصحابة للرسول ﷺ: يا رسول الله. أينا لم يظلم نفسه؟.

ثم إن الله سبحانه أعقب هذه الآية بقوله: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ**﴾[2]. مما يدل على أن الأقسام الثلاثة المذكورة قبلهم، أنهم كلهم من أهل الجنة؛ لكون القرآن الكريم مثاني، إذا ذكر أهل الجنة، ثنّى بذكر أهل النار؛ ليكون المؤمن راجياً خائفاً.

*****

(١) رواه البخاري من حديث أبي بكر الصديق.
(٢) سورة فاطر: ٣٦.

الإيمان بالبعث بعد الوفاة

الحمد لله الكريم المنان، العزيز ذي السلطان، خلق الإنسان من عدم، ثم قال له: كن، فكان. كل يوم هو في شأن. وكل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام. وأشهد أن لا إله إلا الله، شهادة من قال ربي الله ثم استقام، وأشهد أن محمداً نبيه ورسوله سيد الأنام، اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً.

أما بعد: فإن الله - سبحانه - خلق الخلق ليعبدوه، وركَّب فيهم العقول ليعرفوه، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ليشكروه، فأوجد لهم في الدنيا جميع ما يحتاجون إليه من المطاعم، والمشارب، والفواكه، والثمرات، وسائر أنواع الخيرات. ومن كل ما يحتاجونه من الضروريات، والكماليات، كلها كرامة من الله لعباده. يتنعمون بها في حياتهم، ويتمتعون بها إلى ما هو خير منها لآخرتهم، فقال سبحانه: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾[1]، فأمر الله عباده بأن يأكلوا من طيبات ما رزقهم، وحذرهم من الطغيان: وهو مجاوزة الحد في السرف، والترف، والفسوق، والعصيان. بأن يستعينوا بنعم الله على معاصيه، أو يستعملوها في سبيل ما يسخطه ولا يرضيه؛ لكونهم محاسبين، ومجزيين بما يفعلون، كما قال - سبحانه -: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2]، فذكرهم - سبحانه - رجوعهم إليه؛ للوقوف بين يديه، فيسألهم ماذا كنتم تعملون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ وهو معنى ما يقول الصابرون: (إنا لله وإنا إليه راجعون) فمن علم أنه مملوك لله، وأنه راجع إليه، فليعلم أنه موقوف بين يديه ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾[3].

---

(١) سورة طه: ٨١.
(٢) سورة العنكبوت: ١٧.
(٣) سورة الصافات: ٢٤ - ٢٦.

﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(١).

فسمى الله الدنيا متاعاً، والمتاع: هو ما يتمتع به صاحبه برهة، ثم ينقطع عنه، مأخوذ من متاع المسافر ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾(٢).

وقال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾(٣)، فما عيبت الدنيا بأكثر من ذكر فنائها، وتقلب أحوالها، وهو أدل دليل على زوالها، فتتبدل صحة الإنسان فيها بالسقم. ونعيمه بالبؤس، وحياته بالموت، ومآل عمارها بالخراب، واجتماع أهلها بفرقة الأحباب، وكل ما فوق التراب تراب. والله - سبحانه - كتب على الدنيا الفناء، وعلى الآخرة البقاء، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء، وهذا الموت الذي يفزع الناس منه، ليس هو فناء أبداً، لكنه انتقال من دار إلى دار أخرى ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ﴾(٤).

فلا يجزع من الموت، ويهوله الفزع منه؛ إلا الذي لم يقدم لآخرته خيراً، فهذا الذي يجتمع عليه عند فراقه للدنيا سكرة الموت، وحسرة الفوت، وهول المطلع، فيندم حيث لا ينفعه الندم. يقول: ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾(٥)، وخير الناس من طال عمره، وحسن عمله. وشر الناس من طال عمره، وساء عمله.

دع الذم للدنيا فكم من موفق ... يقول وقد لاقى النعيم بجنة

حياتي لو امتدّت لزادت سعادتي ... فياليت أيامي أطيلت ومدتي

إن الناس في الدنيا بمثابة الغرباء، الذين يعلمون ويوقنون بأن لهم داراً هي أبقى، وأرقى من حياتهم في دار الدنيا، فهم يجمعون لها، ويسعون سعيهم في تمهيد

---

(١) سورة غافر: ٣٩، ٤٠.
(٢) سورة التوبة: ٣٨.
(٣) سورة آل عمران: ١٨٥.
(٤) سورة النجم: ٣١.
(٥) سورة الفجر: ٢٤.

النقلة إليها؛ لأن من قدّم خيراً، أحب القدوم عليه، ولأن صنائع الإحسان تقي مصارع السوء، يقول الله في آخر آية نزلت من القرآن: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾(١).

فالمؤمن الذي له حظ ونصيب من العمل الصالح، والتزوّد من الدنيا لآخرته، فإنه لن يكره الموت، إذا نزل به، لفرحه بلقاء ربه، وثواب عمله فنفسه مطمئنة بلقاء ربه، فيقال له عند الاحتضار: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾(٢). وفي الدعاء المأثور: (**اللهم إني أسألك نفساً مطمئنة تؤمن بلقائك، وتقنع بعطائك، وترضى بقضائك**). وفي الحديث، أن النبي ﷺ قال: (**من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه**)، فقال بعض الصحابة: يا رسول الله، كلنا نكره الموت. فقال: (**إنه ليس الأمر كذلك، ولكن الإنسان إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال على الآخرة، فإن كان من أهل الخير، بشر بالخير، فأحب لقاء الله، وأحب الله لقاءه، وإن كان من أهل الشر، بشر بالشر، فكره لقاء الله، وكره الله لقاءه**) رواه أحمد والنسائي من حديث أنس. بل ورواه البخاري ومسلم من حديث عبادة بن الصامت.

وقد جعل الله الدنيا مزرعة للآخرة، تزرع فيها الأعمال الصالحة، والأعمال السيئة، فمن خرج من الدنيا فقيراً من الحسنات والأعمال الصالحات ورد على الآخرة فقيراً، وساءت له مصيراً.

تزوّد من الدنيا بزاد من التّقى ... فعمرك أيام وهن قلائل

فما أقبح التفريط في زمن الصبا ... فكيف به والشيب للرأس شاعل

إن الله - سبحانه - جعل الإيمان بالبعث بعد الموت للجزاء على الأعمال؛ بحيث يثاب المحسن على إحسانه، ويعاقب المسيء على عصيانه، وهو من أقوى أركان الإيمان، وقد أكثر - سبحانه - من ذكره في القرآن الكريم. يقول - سبحانه -

---

(١) سورة البقرة: ٢٨١.

(٢) سورة الفجر: ٢٧ - ٣٠.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾[1].

لأن هذا الاعتقاد: هو أقوى وازع إلى أفعال الطاعات، وأعظم رادع عن مواقعة المنكرات.

لن ترجع الأنفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

وكان السلف الصالح يكتبون في صدور وصاياهم التصريح بعقائدهم، فيقولون: هذا ما أوصى به فلان ابن فلان، وهو يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، شهادة عليها أحيا، وعليها أموت وعليها أبعث إن شاء الله.

وفي الصحيحين: عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «قال الله - عز وجل -: **(كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك، فأما شتمه إياي، فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الواحد الصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفواً أحد، وأما تكذيبه إياي، فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته)**.

وقد أكد - سبحانه - الإيمان بالبعث في كثير من الآيات، كقوله -سبحانه-: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾[2]، فسمى الله يوم القيامة باليوم الآخر؛ لكونه متأخراً عن الدنيا، وفي حديث جبريل الذي رواه مسلم من حديث عمر بن الخطاب، ورواه البخاري عن أبي هريرة، أنه قال: «يا رسول الله أخبرني عن الإيمان؟ فقال: **(الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)**. قال: صدقت»، فجعل التصديق الجازم باليوم الآخر، الذي هو البعث بعد الموت، من أركان الإيمان، ومن كذب به فهو كافر بالكتاب، وبما أرسل الله به رسله،

---

(١) سورة طه: ١٥، ١٦.

(٢) سورة البقرة: ١٧٧.

يقول الله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾(١).

إن الناس في الإيمان بالبعث على صنفين، أحدهما:

الماديون الملحدون: الذين يكذبون بكل ما غاب عن مشاهدهم، فيكذبون بوجود الرب، ويكذبون بالملائكة، ويكذبون بالبعث بعد الموت، ويكذبون بالجنة والنار، ولا يؤمنون إلا بما يحسون، ويلمسون، ويشاهدون، ويقولون ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾(٢)، وقد أكثر القرآن من إقامة الحجج والبراهين على هؤلاء، وأن أمثال هؤلاء لا يؤمنون ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾(٣).

يقول الله - سبحانه -: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ﴾(٤)، أي حين تحق الحقائق ويتجلى الرب للخلائق يوم القيامة، وتبدو الجنة عياناً، والنار عياناً، وتظهر الملائكة ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾(٥).

ففي ذلك الوقت وفي تلك الحالة ﴿لا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾(٦).

فهؤلاء الذين يكذبون بالبعث، هم يعيشون في الدنيا عيشة البهائم، ويعتقدون بأنهم كالبهائم على حد سواء، ليس عليهم أمر ولا نهي، ولا حلال ولا حرام، ولا صلاة ولا صيام. وقد قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾(٧)، وقال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ

(١) سورة التغابن: ٧.
(٢) سورة الجاثية: ٢٤.
(٣) سورة يونس: ٩٧.
(٤) سورة الأعراف: ٥٣.
(٥) سورة الأعراف: ٥٣.
(٦) سورة الأنعام: ١٥٨.
(٧) سورة محمد: ١٢.

﴿إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[1]، فجعلهم أضل سبيلاً من الأنعام؛ لكونهم لم يستعملوا مواهب عقولهم، وأسماعهم، وأبصارهم، فيما خلقت له من عبادة ربهم.

عمي العيون عموا عن كل فائدة لأنهم كفروا بالله تقليدا

أما المؤمنون: فإنهم يعتقدون ويصدقون بكل ما أخبر الله به في كتابه، وعلى لسان نبيّه، سواء أدركوا ذلك بحواسهم ومشاهدهم، أو لم يدركوا ذلك لأنهم يؤمنون بالله، وما جاء عن الله، على مراد الله، إيماناً جازماً لا يخالطه شك، فهؤلاء هم المؤمنون بالغيب، الذين مدحهم الله بقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2].

فالإيمان بالله رباً، وأنه يحيي الموتى، هو إيمان بالغيب.

والإيمان بالملائكة، وأنهم خلق من خلق الله، خلقهم لعبادته وخدمته، وهم عقول بلا شهوات، إيمان بالغيب.

والإيمان بالبعث بعد الموت للجزاء على الأعمال هو إيمان بالغيب.

والإيمان بالجنة والنار هو إيمان بالغيب. وقد مدح الله المؤمنين الذين هم بالآخرة يوقنون، أي يصدقون بطريق اليقين الذي لا يخالطه الشك ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، والفلاح: هو الفوز والنجاح بنعيم الدنيا والآخرة.

إن أكبر ما يحفز النفوس، وينشطها للعمل لآخرتها، هو إيمانها بالثواب على حسناتها، والعقاب على سيئاتها، فتنشط إلى فعل الصلاة، وإيتاء الزكاة، والصيام، وصلة الأرحام، والإحسان إلى المساكين والأيتام، وتنشط إلى التضحية بالنفس والنفيس في سبيل الله، وكونه لا يزكي النفس عند الله سوى عملها الصالح. ويقال للناس: ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون؛ لكون الموت ليس هو فناءً أبداً، لكنه خاتمة الحياة الدنيا، وبدء حياة الآخرة.

---

(١) سورة الفرقان: ٤٤.

(٢) سورة البقرة: ٣ - ٥.

عقيدة أهل السنّة والجماعة:

إن الساعة آتية لا ريب فيها، وإن الله يبعث من في القبور، يقول الله - سبحانه -: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾(١).

فأخبر - سبحانه - باقتراب حساب الناس يوم القيامة؛ لأن كل ما هو آت قريب. والبعيد ما ليس آتياً، وقد خطب النبي ﷺ بعد العصر، حتى إذا أتت الشمس على أطراف الجريد، وأطراف الحيطان، قال: (**إنه لم يبق من الدنيا إلا كما بقي من يومكم هذا**)، وذلك بالنسبة إلى طول مدة ما مضى من الدنيا.

النوم أخو الموت، واليقظة منه بمثابة البعث بعد الوفاة:

خلق الله النوم في الحياة، وجعله بمثابة النوم للوفاة، وهو آية من آيات الله، قال - سبحانه -: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾(٢). وهو نعمة من الله، يعود على البدن بالراحة، والصحة، ويستعيد البدن نشاطه، وقوته.

وإن البعث بعد الموت: هو بمثابة اليقظة بعد النوم على حد سواء، فلو بقي الإنسان في قبره ألف سنة، أو ألفي سنة، ثم استيقظ للبعث يوم القيامة، فكأنه لم يلبث إلا عشية أو ضحاها، يقول الله - سبحانه -: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾(٣)، وقد أخبر - سبحانه - عن كرامة أهل الكهف، وأنهم لبثوا في نومهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾(٤)، فشبّه - سبحانه - نومة أهل الكهف الطويلة، بنومة الموت مهما طالت، وشبه بعثهم - أي استيقاظهم من نومهم - ببعثة الموت عند قيام الساعة وقولهم ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، وكذلك الموتى متى بعثوا، كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار، ولهذا قال

---

(١) سورة الأنبياء: ١ - ٣.
(٢) سورة الروم: ٢٣.
(٣) سورة الأحقاف: ٣٥.
(٤) سورة الكهف: ٢٩.

- سبحانه -: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا﴾(١)، وقد جعل الله النوم في الدنيا، بمثابة النموذج لموت الآخرة، فهو يحقق بصدق قيام الساعة، وأحوال القيامة، وأهوالها.

وقد سمّى الله النوم: موتاً، في قوله - سبحانه -: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾(٢)، فسمى الله النوم وفاة؛ لأنه شقيق وفاة الآخرة، ويسمى الوفاة الصغرى، نظيره قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٣)، فسمى الله النوم وفاة؛ لكونه يهجم على الحي في حال غفلته؛ بحيث لا يحس بهجومه إلا وهو في عالم الأموات، ثم يشاهد في منامه من الأحوال، والأهوال، ومخاطبة الموتى، وغير ذلك، مما لا يدركه في يقظته، ومتى رأى في منامه ما يسره فرح واستبشر، واستيقظ مسروراً بما رأى، والرؤيا الصالحة من المبشرات، وهي ما يراها المؤمن، أو ترى له، كما أنه إذا رأى ما يسوؤه، أصبح حزيناً كئيباً من خوف وقوع ما رأى، وهكذا أحوال الآخرة، فإن الله خلق النوم، وسماه وفاة، وجعله بمثابة الشاهد الصادق لأحوال القيامة وأهوالها، وأن قيام الناس من قبورهم هو بمثابة قيامهم من نومهم ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٤).

فلا ينبغي للعاقل أن يستبطئ قيام الساعة، وقد جاءت أماراتها، وهي لا تأتيكم إلا بغتة، فبعض الناس يراها بعيدة وهي قريبة، فلأجل طول أمله، تراه يندفع إلى المخالفات؛ من ترك الطاعات والصلوات، وارتكاب المنكرات لظنه أن الآخرة متأخرة، يقول الله: ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾(٥)،

---

(١) سورة الكهف: ٢١.
(٢) سورة الزمر: ٤٢.
(٣) سورة الأنعام: ٦٠.
(٤) سورة يس: ٥١ - ٥٤.
(٥) سورة القيامة: ٥ - ٦.

يقول: سأعمل ثم أتوب، وسأعمل ثم أتوب، وربما تعاجله المنية قبل تحقيق هذه الأمنية، أي قبل التوبة فيندم، حيث لا ينفعه الندم ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾(١).

إن الأرواح بعد مفارقتها للأجسام لا يشملها الفناء، بل تبقى منعمة أو معذبة، فقد ثبت ذلك في القرآن الحكيم، حاكياً عن آل فرعون، وأنهم يعرضون على النار غدواً وعشياً ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾(٢). وقال - سبحانه - في حق الشهداء: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٣)، وهذه حياة أرواح برزخية لا يعلم كيفيتها إلا الله. وأخبر النبي ﷺ: أن أرواح الشهداء في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وثبت لأرواح المؤمنين الصالحين مثل ذلك، فالأرواح بعد موتها باقية: إما أن تنعم، أو تعذب.

ومثله اجتماع النبي ﷺ ليلة الإسراء بالأنبياء في منازلهم من السماء، وصلاته بهم، وما ذاك إلا بأرواحهم، ولعلهم تشكلوا له بصورهم في الدنيا، حيث رأى نبي الله يوسف، وقد أعطي شطر الحسن، ومثله المراجعة الواقعة بينه وبين موسى، وما ذاك التخاطب إلا بالأرواح، وإلا فمن المعلوم أن الأنبياء كلهم قد ماتوا، ودفنوا بالأرض، ما عدا عيسى - عليه الصلاة والسلام.

أما الإسراء بالنبي ﷺ، وكذا المعراج، فإنه بروحه وجسده على القول الصحيح، وحمل اللفظ على حقيقته؛ إذ المقام مقام معجزة؛ لأن الله افتتحها بقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(٤). وكان من هدي النبي ﷺ أنه إذا استعظم شيئاً، إما سبَّح، أو كبَّر، تأسياً بالقرآن.

---

(١) سورة الفجر: ٢٤.
(٢) سورة غافر: ٤٦.
(٣) سورة آل عمران: ١٦٩، ١٧٠.
(٤) سورة الإسراء: ١.

إنه ما بين أن يرى مقدمات الآخرة، والمجازاة على عمله، إلا أن يقال: فلان قد مات، وما أقرب الحياة من الممات، وكل ما هو آت آت.

وثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: (**يؤتى بأنعم الناس في الدنيا** - أي المنعمين المترفين، التاركين للطاعات، والمستحلين لفعل المنكرات - **فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال له: هل رأيت خيراً قط؟ هل مرّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا يا رب، فينسى نعيم الدنيا ولذاتها عند أدنى مس من العذاب، ثم يقال له: كم لبثت في الدنيا؟ فيقول: لبثت يوماً أو بعض يوم، فيقال له: بئس ما اتجرت في يوم أو بعض يوم**). ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من المؤمنين المعذبين، ومن الفقراء والمساكين، فيصبغ في الجنة صبغة، ثم يقال له: هل رأيت في الدنيا بؤساً قط؟ وهل مرّ بك بؤس قط؟ فيقول: لا يا رب، فينسى بؤس الدنيا وعذابها، ويقال له: كم لبثت في الدنيا؟ فيقول: لبثت يوماً أو بعض يوم. فيقال له: نعْمَ ما اتجرت في يوم أو بعض يوم».

إن بعض الملحدين المكذبين بالبعث، يستبعدون وقوعه وإمكانيته، حيث رسخ في قلوبهم عقيدة الدهريين، ويسمون بالطبيعيين، أي ينسبون الحياة والموت للطبيعة، ويقولون: ما هو إلا رحم يدفع، وأرض تبلع، ولا حياة بعدها. فهم لا يرجون لقاء ربهم، ولا يخافون عذابه، وقد أكد الله ذلك، وقرر الإنكار عليهم في كثير من الآيات، فقال - سبحانه -: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ۝٧ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[1]، وقال: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾[2]، فبدأ الآية باستفهام الإنكار عليهم في فساد اعتقادهم، نظيره قوله - سبحانه - : ﴿**أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝٨١ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾[3]، وقال - سبحانه -: ﴿**وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ**

---

(١) سورة يونس: ٧ -٨.
(٢) سورة المؤمنون: ١١٥.
(٣) سورة يس: ٨١ - ٨٣.

وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[1]، وإن الله - سبحانه - قد أكثر في كتابه من الإنكار على المكذبين بالبعث بفنون من التعبير، فقال: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾[2]. فدلت هذه الآية دلالة واضحة على أنه متى فسد الاعتقاد، فسد العمل، وساءت النتيجة، فهذا الكافر المكذب بالبعث، الذي لا يرجو ثواباً على حسناته، ولا عقاباً على عصيانه، فنتج عن سوء اعتقاده، فساد أعماله، فتراه يدعّ اليتيم - أي يدفعه بعنف وشدة - ليس في قلبه إحسان، ولا حنان، ولا شفقة؛ لأنه لا يؤمن بالثواب على إحسانه، ولا يخاف العقاب على إساءته، فكان جديراً بكل شر، بعيداً عن كل خير، وعادم الخير لا يعطيه، وكل إناء ينضح بما فيه.

وللخير أهل يُعرفون بهديهم ... إذا اجتمعت عند الخطوب المجامع

وللشر أهل يُعرفون بشكلهم ... تشير إليهم بالفجور الأصابع

يقول الله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾[3]، فسمى الله القيامة بيوم الدين؛ لأن كل إنسان يدان - أي يجازى - بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

إن عقيدة الإيمان بالبعث، والجزاء على الأعمال، هي أعظم وازع إلى أفعال الطاعات، وأكبر رادع عن مواقعة المنكرات. فالمؤمن الذي يعتقد الجزاء على حسناته، تراه يحافظ على الصلوات في أوقاتها، ويؤدي الزكاة الواجبة في ماله، ويعتقدها مغنماً عند ربه. وبركة في ماله، ويصوم رمضان بنيّة خالصة لله، حتى لو ضرب ليفطر لما أفطر أبداً، أو عرضت عليه الدنيا بحذافيرها ليفطر لما اعتاض بها؛ لكون إيمانه يحجزه، ثم هو يكثر من أفعال الطاعات والحسنات، وبسط اليد بالصدقات، وصلة القرابات، والإحسان إلى المساكين، والأيتام، وذوي الحاجات،

(١) سورة يس: ٧٨ - ٧٩.

(٢) سورة الماعون: ١ - ٣.

(٣) سورة الانفطار: ١٧ - ١٩.

والتزود بنوافل العبادات، والإكثار من الذكر، والتسبيح، والدعاء، والاستغفار، وتلاوة القرآن، ثم السخاء بتضحية النفس في سبيل الله؛ لاعتقاده أن له حياة هي أسعد من حياته في الدنيا، وأن له داراً في الآخرة، هي أبقى، وأرقى من حياته في الدنيا، فهو يسعى سعيه، ويعمل عمله في النقلة إليها، رجاء الفوز بها. وإن الذين يعتقدون الثواب على حسناتهم، ينجم عن حسن اعتقادهم، حسن أعمالهم؛ من الصفات الحميدة، والأقوال السديدة، ومن الجرأة، والإقدام، والتضحية بالنفس والنفيس في سبيل الحق.

إن هذا الاعتقاد: يطبع في النفوس الثبات على المكارم، وتحمل المكاره ومقارعة الأهوال الشديدة، بجأش ثابت، يعلم أن ما عند الله خير وأبقى من الدنيا وما فيها، وما أنفقه فإن الله سيخلفه، ويدخر ثوابه له في آخرته.

لقد اندفع المسلمون بصحة عقيدتهم في القرن الأول، والثاني، والثالث بشجاعة باسلة، وقلوب ثابتة، وإيمان راسخ إلى تحقيق الجزاء على أعمالهم، فاندفعوا إلى مشارق الأرض ومغاربها، يفتحونها، وإن هذا الاعتقاد: هو الذي ثبّت أقدامهم مع قلتهم وضعفهم أمام جيوش أعدائهم، الذي يغص بها الفضاء، وتعج من كثافتها الأرض والسماء، فتلاشت أمام المؤمنين بالله ولقائه، حيث كشفوهم بقوة الإيمان، ثم نشروا بينهم التوحيد في سائر البلدان.

وقد أمر الله نبيّه بأن يؤكد للناس البعث يوم القيامة للجزاء على الأعمال باليمين البارة، قال - سبحانه - : ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾(١)، وفي الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾(٢)، وفي الآية الثالثة: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾(٣)، فهذه الآيات يحقق الله فيها البعث بعد الوفاة، كما أمر نبيه بتأكيد ذلك بالقَسَم الصادق، وقد أقسم رسول الله ﷺ في تأكيد الحق كهذا في بضعة وثمانين موضعاً من السنّة، وفيه دليل على أن الإنسان لا

(١) سورة التغابن: ٧.
(٢) سورة سبأ: ٣.
(٣) سورة يونس: ٥٣.

يأثم متى حلف بيمين بارة؛ ليتحصل بها ماله الثابت باليقين عنده، ولينقذ خصمه من ظلمه بمحاولة إخراجه منه بيمينه.

كفر مشركي العرب بإنكار البعث بعد الموت:

إن القرآن الكريم قد أكثر من ذكر البعث بعد الموت للجزاء على الأعمال؛ لكون مشركي العرب على طريقة وعقيدة الدهريين؛ بحيث ينكرون البعث بعد الوفاة، ويكذبون بالجنة والنار، فهم أغلظ كفراً من اليهود والنصارى؛ لأن اليهود والنصارى يصدقون بالبعث بعد الموت، ويصدقون بالجنة والنار، فقال - سبحانه - عن المشركين: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾[1]، أي يحفظ أعمالهم، ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[2]، فيقال لكل إنسان ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[3]، فعقيدة أهل السنة كلهم أن الله - سبحانه - ينشىء الناس خلقاً جديداً، حتى الذي أكلته السباع، أو أكلته الحيتان في البحر، أو احترق بالنار حتى كان هباءً ورماداً، فإن الله - سبحانه - يبعثهم خلقاً جديداً فيحاسبهم على أعمالهم ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[4]، وفي البخاري، أن النبي ﷺ قال: **(إن رجلاً ممن كان قبلكم قال لبنيه: إذا مت فاحرقوني بالنار، وذروا نصفي في البر، ونصفي في البحر، فوالله لئن قدر الله عليَّ ليعذبني عذاباً شديداً، قال: ففعل به بنوه ما أوصاهم به، فأمر الله البحر فجمع ما فيه، وأمر الله البر فجمع ما فيه، فتمثل قائماً بين يدي الله، فقال الله له: ما حملك على ما فعلت. قال: خشيتك يا رب)**[5]. وقد أخبر - سبحانه- عن الملحدين المكذبين بالبعث، بأنهم يؤكدون للناس

---

(١) سورة ق: ٢ -٤.
(٢) سورة الكهف: ٤٩ .
(٣) سورة الإسراء: ١٤.
(٤) سورة الكهف: ٤٩.
(٥) رواه عن أبي هريرة بلفظ آخر.

إنكارهم للبعث بعد الموت بأيمانهم الكاذبة، فقال - سبحانه-: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[1]، وقال - سبحانه -: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾[2]، فسمى الله يوم القيامة بيوم الدين؛ لأن كل إنسان يدان - أي يجازى بعمله - إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

عقيدة أهل السنَّة في إنشاء الأجساد خلقاً جديداً:

إن الله - سبحانه - ينشىء أجسام الناس في الآخرة نشأةً مستأنفة؛ بحيث يدخل أهل الجنة الجنة في سن ثلاث وثلاثين سنة، حتى العجائز في الدنيا، الحمص والرمص، وهن مسلمات، قانتات، فينشئهن الله نشأة مستأنفة، قال - سبحانه -: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾[3]، فقوله: عرباً - أي متحببات إلى أزواجهن، وأتراباً- أي في سن ثلاث وثلاثين سنة، وهن أفضل وأجمل من الحور العين، بفضل صلاتهن، وصيامهن، وقد قالت أم سلمة: يا رسول الله، المرأة منّا تتزوج بعدد أزواج، وتدخل هي وأزواجها الجنة، فمع من تكون؟ فقال: «يا أم سلمة إنها تخيّر، فتختار أحسنهم خلقاً، يا أم سلمة، ذهب حسن الخلق بخيريّ الدنيا والآخرة»[4].

يقول الله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[5].

إن إعادة الأجسام أسهل من بدايتها، فالقادر على الشيء في بدايته من صنعة وغيرها، هو قادر على إعادتها من باب الأولى، والأحرى، يقول الله: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ

(١) سورة النحل: ٣٨ - ٤٠.
(٢) سورة المطففين: ١٠ - ١٢.
(٣) سورة الواقعة: ٣٥ - ٣٧.
(٤) رواه الطبراني في الكبير وفي الأوسط.
(٥) سورة العنكبوت: ٢٠.

الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[1]، وقال: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۝ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾[2]، يعني أطراف أصابعه التي هي أدق شيء في جسمه.

قال المنجم والطبيب كلاهما ... لا تبعث الأموات قلت إليكما

إن صح قولكما فلست بخاسر ... أو صح قولي فالخسار عليكما

وقوع التنازع بين موحِّدٍ وملحد في حقيقة البعث بعد الموت:

أخبر الله - سبحانه - في كتابه المبين عن رجلين قرينين اصطحبا في الدنيا، أحدهما مؤمن بالله، يصدق بالبعث بعد الموت للجزاء على الأعمال، ويصدق بالجنة والنار، ويعمل عمله على حساب هذه العقيدة الحسنة، فيصلي، ويصوم، ويتصدق، ويعمل سائر أعمال الخير، رجاء أن يثاب عليها في الآخرة.

والثاني: ملحد، دهري، يكذب بالبعث بعد الموت، ويكذب بالجنة والنار، ويعمل عمله على حساب فساد عقيدته، فتراه لا يصلي ولا يصوم، ويرتكب كل ما يشتهي من المنكرات، وترك الطاعات، ولم تزل المناظرة الجدلية بينهما في الدنيا؛ بحيث إن كل واحد منهما يحاول إرجاع صاحبه إلى عقيدته، حتى سارت بهما ركاب منيتهما إلى الآخرة.

فجوزي المؤمن: بالفوز بالجنة، بفضل ربه ورحمته، جزاء وكرامة له على حسن عمله.

وأُدخل المكذب بالبعث النار، جزاء على كفره، وتكذيبه بلقاء ربه، فبعد دخول المؤمن الجنة تذكر صاحبه في الدنيا الذي ما زال يجادله في إنكار البعث بعد الموت، وتمنى أن يعرف كيف كانت حاله، ومحله، وعاقبة مصيره. فقيل له: إن صاحبك أدخل النار جزاء على كفره بلقاء ربه، فإن أحببت أن تراه وتخاطبه فإنه

---

(١) سورة ق: ١٥.

(٢) سورة القيامة: ٣ - ٤.

سهل مُيسّر، قال الله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾، أي صديق في الدنيا ﴿يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾، أي لمجزيون، إن هذا من الأمر المحال الذي لا صحة له، فيقال للمؤمن: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾، أي هل تحب أن تنظر إلى صاحبك وتراه كيف يعذب في النار؟ فيقول: نعم، قال: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾، أي في وسط الجحيم يعذب فيها، فعند ذلك خاطبه المؤمن وقال له: ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ معك في العذاب لو أطعتك ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ ورحمته بي ﴿لَكُنتُ﴾ معك ﴿مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ في النار ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ثم قال - سبحانه -: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾(١).

وهنا يقع السؤال: وهو أن الله - سبحانه - قال في هذه الآية: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾(٢)، وفي موضع آخر قال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾(٣)، فنفى التساؤل في هذه الآية بين الناس في الآخرة، وأثبته في الآية قبلها.

والجواب عن هذا: أن يوم القيامة عرصات، ومقامات، وللناس فيها حالات، فحالة لا يسأل فيها أحد أحداً، وذلك حين تقوم الساعة، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾(٤)، وهذا أحد المواقف التي لا يسأل أحد فيها أحداً.

والموقف الثاني: حين تتطاير الصحف، ولا يدري أيأخذ كتابه بيمينه، أو بشماله.

---

(١) سورة الصافات: ٥٠ - ٦١.
(٢) سورة الصافات: ٥٠.
(٣) سورة المؤمنون: ١٠١.
(٤) سورة عبس: ٣٣ - ٣٧.

والثالث: عند الميزان، حينما توزن الأجسام بما اشتملت عليه من الأعمال ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾(١).

والموقف الرابع: عند الصراط، حين يعرض على متن جهنم، ويكلف الناس بالمرور عليه، وهو معروض على متن جهنم، أشبه الخشبة فوق القليب، وهو أدق من الشعرة، وأحدُّ من السيف، تجري الناس أعمالهم عليه، وهو معنى الورود الذي قال الله فيه: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾(٢).

فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كأجاويد الخيل، وعلى جوانبه كلاليب وحسك، تخدش الناس، وتخطف من أمرت بخطفه، وتلقيه في جهنم، وهذه الكلاليب والحسك، هي المعاصي، والنبي ﷺ قائم على طرف الصراط يقول: (**اللهم سلّم سلّم**)، ويعرف أمته من بين سائر الأمم بالغرّة والتحجيل من آثار الوضوء، فمتى خلصوا من الصراط، شربوا من الكوثر، فهذه المواطن لا يذكر فيها أحد أحداً، ولا يسأل أحد عن أحد.

ومن بعد صدورهم عن الحوض يقفون للسؤال ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾(٣)، وفي هذه المواقف يقتص بعضهم من بعض في الحقوق التي بينهم في الدنيا، ويتنازعون، ويقع بينهم الخصام فيها ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾(٤)، فمن بعد التمحيص، والقصاص من بعضهم البعض، وبعدها، يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يقول الله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾(٥).

---

(١) سورة القارعة: ٦ - ١١.
(٢) سورة مريم: ٧١ - ٧٢.
(٣) سورة الصافات: ٢٤ - ٢٦.
(٤) سورة النحل: ١١١.
(٥) سورة الزمر: ٧١ - ٧٤.

ثم إنه بعد دخول أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجري بينهما التخاطب، فيسأل أحدهما الآخر عن حاله، ومحله، وعاقبة مصيره، وقد قيل: إن بين الجنة والنار سوراً، فيه كوى ينظر بعضهم بعضاً، ويخاطب بعضهم بعضاً، وهذا معنى قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[1]. فأهل الجنة يدخلون الجنة بفضل الله ورحمته، لكنهم يتقاسمون المنازل بالأعمال، حيث إن بعضهم أفضل من بعض بالأعمال الصالحة، يقول الله: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ (أي في الدنيا) وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[2]. فيكون منزلة الفاضل كالكوكب في السماء، بحيث يتراءونه ويقولون: هذه منزلة فلان ابن فلان، حتى إن الرجل الصالح ينزل في المنزلة العالية، وينزل ابنه في منزلة دونه، فيقول: أين ابني؟. فيقال: إن منزلته دونك، قد قصرت به أعماله، فيقول: إني عملت لنفسي ولابني، فيأمر الله برفع ابنه إليه في منزلته لتقرّ عينه به، يقول الله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[3]، فصاحب المنزلة العالية يستطيع أن يزور كل من تحته، أما صاحب المنزلة النازلة، فلا يستطيع أن يصعد إلى من فوقه؛ لأن أعماله قد قصرت به.

بيان سوق الجنة وتلاقي الناس فيه:

إن هناك سوقاً في الجنة يجتمع فيه أهل المنزلة العالية، والمنزلة الدانية، فيسأل بعضهم بعضاً، كما ثبت في صحيح الترمذي أن سعيد بن المسيب لقي أبا هريرة في السوق فقال: يا سعيد اسأل الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة. فقال: أو في الجنة سوق؟ قال: نعم إنه إذا كان يوم المزيد في الآخرة وهو يوم الجمعة في الدنيا؛ فيأذن الرب لأهل الجنة في زيارته، ويجلسون إليه، ويتجلى لهم،

---

(١) سورة الحديد: ١٣ - ١٥.
(٢) سورة الإسراء: ٢١.
(٣) سورة الطور: ٢١.

فما أعطوا نعيماً أفضل من النظر إلى وجه الله الكريم، فما يبقى في ذلك المجلس رجل إلا حاوره الله، فيذكره ببعض أفعاله في الدنيا. فيقول: يا رب ألم تغفر لي؟ فيقول الله: بلى. فبسعة مغفرتي، بلغت منزلتك هذه. ثم يقول الله: قوموا إلى ما أعددت لكم، ثم يقومون إلى سوق قد حفته الملائكة، فيه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيأخذون منه بلا عقد، ولا نقد ثمن، فهذا يوم المزيد.

وثبت في القرآن الكريم وقوع التخاطب بين أهل الجنة وأهل النار، وأن كل فريق منهما ينادي الفريق الثاني ويسأله عن حاله ومحله، وكيف مصيره، قال الله - سبحانه -: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[1]، وقال: ﴿نَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[2].

حكم منكر البعث في الشرع الإسلامي:

إن الحكم الشرعي في منكر البعث، وقيام الساعة، متى كان يجهر بإنكاره، فإنه كافر بإجماع علماء المسلمين؛ لأنه مكذب بالكتاب، وبما أرسل الله به رسله، فيترتب عليه حكم المرتد على السواء، يقول الله - سبحانه - ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾[3]، وإن كان ممن يخفي ذلك ولا يجهر باعتقاده، فإنه المنافق، يعامل معاملة المسلمين.

إن الساعة آتية لا ريب فيها، فتأتي إلى الناس بغتة وهم غافلون، يقول الله - سبحانه -: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾[4]، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: (كيف

---

(١) سورة الأعراف: ٤٤.
(٢) سورة الأعراف: ٥٠ - ٥١.
(٣) سورة الفرقان: ١١.
(٤) القيامة: ٧ - ١٢.

أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته، ينتظر متى يؤمر، قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل).

وقال: (**جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه**)، فالراجفة هي نفخة الصعق، أي الموت، فينفخ إسرافيل في الصور والرجلان بينهما الرداء، فلا هذا يقبضه، ولا هذا يقبضه، ويرفع الرجل اللقمة فلا يوصلها إلى فمه، ولا يردها في القصعة ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ**﴾[1].

وقد قيل للنبي ﷺ: «كم بين النفختين؟ قال: قيل أربعون يوماً؟ قال: أبيت. قيل أربعون شهراً؟ قال: أبيت. قيل: أربعون سنة؟ فسكت» - أي نعم - ثم إن الله - سبحانه - يأمر السماء أن تدر عليهم بالمطر، فيمطرون ليلاً، ونهاراً، فينبت الناس كنبات الطراثيث، فإذا أكمل نباتهم، أمر الله إسرافيل أن ينفخ نفخة البعث ﴿**كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ**﴾[2]، فتخرج الأرواح تتوهّج، ويقول الله: فوعزتي لترجعن كل روح إلى الجسد التي كانت تعمره في الدنيا، فيقومون من قبورهم حفاة عراة غرلاً، وقد قالت عائشة: واسوأتاه، ينظر بعضنا إلى سوأة بعض؟ فقال: الأمر أعظم من أن يهمهم ذلك. يقول الله - سبحانه -: ﴿**وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ**﴾[3].

فمتى انقضى عمار الدنيا، وأراد الله أن يجلي أهلها عنها، وأن ينقلهم منها إلى دار أخرى؛ ليجزي فيها الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا

---

(١) سورة الزمر: ٦٨ - ٧٠.
(٢) سورة الأنبياء: ١٠٤.
(٣) سورة ق: ٤١ - ٤٤.

بالحسنى، فعند ذلك يأمر الله بقيام الساعة. وقد وصف الله القيامة بأسماء، وأوصاف متعددة، متنوعة، تدل بمعانيها على أنها شيء عظيم، فوصفها بالطامة الكبرى، وبالصاخة، وبالزلزلة، والقارعة، والواقعة، وقال: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾(١)، وقال: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾(٢).

وقال: ﴿الْقَارِعَةُ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾(٣)، تعظيماً لشأنها، وكون ذلك يحصل بقارعة تقرع الأرض، فترجها رجاً، وتبسها بساً، ويكون الناس هباءً منبثاً، وكالفراش المبثوث، فيكور بالشمس، ويخسف بالقمر، وتتناثر النجوم من إمساكها المقتضي لإثباتها، وقد بطل ذلك عند القضاء بفناء الدنيا، وخراب العالم، وعدم الاحتياج إلى شيء من ذلك.

وقال - سبحانه -: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾(٤)، أي ألقت جميع ما على ظهرها من جبال، وأناس، وتخلت عنهم؛ لكون الناس يحشرون على أرض بيضاء لم يُعص الله عليها.

والحكمة في هدم الأبنية، وتسيير الجبال، ودك الأرض، وشق السماء ونثر النجوم، وتكوير الشمس، وخسوف القمر، وتخريب هذا العالم بأجمعه أن الله - سبحانه - لما بنى للناس دار الدنيا للسكنى بها، والتمتع بخيراتها، وجعل ما فيها زينة للأبصار، وعظة للاعتبار، والاستدلال على وحدانيته، وجميل صنعه بما يقتضي الإيمان به، وإخلاص العبادة له، فلما انقضت مدة السكنى بها، وحقت كلمة ربك على فنائها، أجلاهم - سبحانه - منها، وخرّبها؛ لانتقالهم منها إلى غيرها ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾(٥)، وأراد أن

---

(١) سورة الواقعة: ١ - ٣.
(٢) سورة الحج: ١ - ٢.
(٣) سورة القارعة: ١ - ٣.
(٤) سورة الانشقاق: ١ - ٤.
(٥) سورة إبراهيم: ٤٨.

يعلمهم بأن في إحالة الأحوال، وإظهار تلك الأهوال، وتعريض ذلك الصنع العجيب للزوال، كله بيان لكمال قدرته، ودوام بقائه، وأن كل شيء هالك إلا وجهه، وكل ملك زائل إلا ملكه، وأن عنده - سبحانه - لعباده داراً هي أبقى وأرقى، وأجل وأجمل من دار الدنيا، ليجزي فيها الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

فلا يجزع من الموت ويهوله الفزع منه، إلا الذي لم يقدّم لآخرته عملاً صالحاً يرجو ثوابه، ويقول: ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾(١)، فهذا الذي ينتقل من دار الدنيا إلى عذاب الآخرة، يقول الله - سبحانه-: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلاَّ لا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾(٢).

أمـا والله لـو علـم الأنـام ... لِما خُلقوا لَمَا غفلوا وناموا
لقـد خُـلقوا لأمر لو رأتـه ... عيون قلوبهم تاهوا وهاموا
ممـات ثـم قبـر ثم حشـر ... وتوبيخ وأهـوال عظـام
ليوم الحشر قد عملت رجال ... فصلوا من مخافته وصاموا
ونـحـن إذا أمـرنا أو نهينا ... كـأهـل الكهف أيقاظ نيام

والله أعلم.

*****

(١) سورة الجاثية: ٢٤.
(٢) سورة القيامة: ٧ - ١٣.

التذكير بحديث «المؤمن القويّ أحب إلى الله من المؤمن الضعيف» وفيه بيان القضاء والقدر على الوجه الصحيح:

وبما أنه بقي الكلام على موضوع حديث جبريل، وفيه: (**وأن تؤمن بالقدر خيره وشره**) فقد يشكل على أكثر الناس حقيقة هذا القدر الذي يجب الإيمان به، فيتخبطون في وصفه وتفسيره، بما يبعد عن حقيقته، ويبعد القلوب عن فهمه؛ لهذا وجب أن نبين للناس حقيقة القدر الذي يجب الإيمان به، ونقدّم قبله الكلام على حديث (**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**). إذ فيه بيان حقيقة القدر، ومحاولة محاربته، وعدم الاتكال عليه.

فقد روى مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: (**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله، وما شاء فعل، فإن لَوْ تفتح عمل الشيطان**).

وأقول: إن هذا الحديث، هو من جوامع الكلم، ومهمات الحكم، فهو بمثابة الموعظة الفصيحة، والنصيحة الصحيحة، التي حث النبي ﷺ عليها أمته، وأحب منهم أن يتخلقوا بمدلوله الذي فيه سعادتهم في دنياهم وآخرتهم.

بدأه بقوله: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**»، لكون القوي يزيد على الضعيف بقوته، والقوة في سبيل الحق والعدل مطلوبة شرعاً، ومحبوبة طبعاً.

ولهذا يستحبون الغزو مع الأمير القوي الفاجر، ويفضلونه على الغزو مع الأمير المؤمن الضعيف، ويقولون: إن إيمان الضعيف لنفسه، وضعفه يضر بالناس، وإن فجور الأمير القوي لنفسه، وقوته تنفع الناس.

ولهذا كان من سيرة عمر بن الخطاب: أنه كان يفضّل الأمير القوي، ويقدمه في الولاية على الضعيف، كما وَلَّى زياد بن أبيه وأمثاله، وكان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من جلد الفاجر، وعجز الثقة».

ويستحبون في القاضي: أن يكون قوياً من غير عنف، ليناً من غير ضعف، حليماً، ذا أناة وفطنة، وقد قيل:

ما أنت بالسبب الضعيف وإنما نجح الأمور بقوة الأسباب

فالقوة الممدوحة هنا، شاملة للقوة في الدين والدنيا، لكونه يقوم في أعماله بجد وعزم، ويأخذ بأسباب الجزم، وقد قيل:

لأستسهلنّ الصعب أو أدرك المنى فما انقادت الآمال إلا لصابر

ولهذا قال: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز».

فهذه من أجمع الكلمات، وأفصح العظات، ترشد الإنسان إلى الحرص فيما ينفعه في أمر دينه، ودنياه، وبدنه، فمتى احتاج إلى علاج يزيل به ضرره، ويدفع به مرضه، فإنه يبادر إلى الأخذ بأسبابه، والدخول عليه من بابه؛ لأن دين الإسلام يجمع بين مصالح الروح والجسد، وبين مصالح الدنيا والآخرة.

ففي الحديث، أن النبي ﷺ قال: (**ما نزل من داء، إلا وله دواء، علمه مَنْ علمه، وجهله مَنْ جهله**)، وقال: (**تداوَوْا ولا تداوَوْا بحرام**)، فيستعمل الدواء الكريه المرّ، خوفاً من الوقوع في الضر.

كمال قيل:

نحن في دار بليات نعالج آفات بآفات

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «إن الطعن في الأسباب قدح في الشرع، والإعراض عن الأسباب نقص في العقل»، والله - سبحانه - يحب الكَيِّس - أي الحزم- ويلوم على العجز. وفي الحديث: (**كل شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكيس**)، فالعجز هو التواني، والكسل في الأمور، وعدم الأخذ بالثقة، وعمل الحيطة في كل ما يقيه ويرقيه. ولهذا قيل:

الحزم أبو العزم أبو الظفرات والترك أبو الفرك أبو الحسرات

فقول النبي ﷺ: «**احرص على ما ينفعك**»، يشمل هذا كله، كما يشمل الحرص على أمر دينه، من المحافظة على فرائض ربه التي ينتظم بها أمر حياته

وآخرته، فإنها نعم العون على ما يزاوله من أمر الدنيا، وفي الدعاء المأثور «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي»، وقد مدح الله الذين يقولون: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(١).

فلا ينبغي للإنسان أن يعجز عما يعود عليه نفعه، من أمر دينه، ودنياه، فإن العجز نتيجته الحرمان، وقد قيل:

دع التكاسل في الخيرات تطلبها فليس يسعد بالخيرات كسلان

ومن دعاء النبي ﷺ: (**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال**)(٢).

إن أضر ما ابتلي به الشخص، هو العجز والكسل، وأكثر الناس يجعلون عجزهم توكلاً، وفجورهم قضاءً وقدراً.

فمتى صارحت الشخص، ونصحته عن ترك الطاعات، كالصلاة مثلاً، أو نهيته عن شيء من المنكرات، كشرب المسكرات، اعتذر إليك قائلاً: إنه أمر مكتوب عليَّ، فهو كما قيل: عند ترك الطاعات قدري، وعند ارتكاب المنكرات جبري، نظير ما حكى الله عن المشركين، حيث قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾(٣).

فالمحتج بالقدر حجته داحضة عند ربه؛ لأنه باحتجاجه بالقدر، يريد أن يبطل الأمر والنهي، اللذين عليهما مدار العبادات والأحكام، وأمور الحلال والحرام، والله سبحانه خلق الإنسان وركب فيه السمع، والبصر، والعقل؛ ليتم بذلك استعداده

---

(١) سورة البقرة: ٢٠١.

(٢) رواه أبو داود عن أبي سعيد الخدري.

(٣) سورة النحل: ٣٥.

لتناول منافعه، واستعمالها في سبيل قوته، ووقاية صحته، وحفظ بُنيته، وقد أرشد القرآن الحكيم إلى أخذ الحذر، الذي من لوازمه عدم الركون، أو الركود إلى القدر، فقال سبحانه: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾(١)، وقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾(٢)، وقد ظاهر النبي ﷺ بين درعين، وهو محفوظ من الله بكلاءَته، وملائكته.

ربط الأسباب بالمسببات:

وكان من هدي النبي ﷺ فعل التداوي في نفسه، والأمر به لمن أصابه مرض من أهله، وأصحابه، وكل ما شرعه رسول الله ﷺ لأمته، وأمر به، فإنه من الدين الذي يجب اتباعه، واستعماله، ويدخل في عموم قوله: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز».

فالأنبياء والعلماء دينهم الأمر، وعليه مدار العمل، مع إيمانهم بالقضاء والقدر، فهم يقدمون الأمر، ويحاربون القدر بالقدر، كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لما بلغه أنه قد وقع الطاعون بالشام، فامتنع عن دخول البلد من أجله، وعزم على الرجوع بأصحابه، ولما قال له أبو عبيدة: أفراراً من قدر الله يا عمر؟ قال: نعم، نفرّ من قدر الله إلى قدر الله.

ويقولون: القدر لا يمنع العمل، ولا يجب الاتكال عليه، ولا الاحتجاج به، إلا في حالة بذله للأسباب التي تقيه، وترقيه، وتحفظه، فمتى غلبه الأمر بعد ذلك، فإنه لا يلوم نفسه على تقصيره، أو تفريطه، ولن يلومه الناس؛ إذ قد ينزل بالشخص من البلايا والمحن، ما لا طاقة له به. ولهذا قال: «ولا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا». لأن هذا من اللوم المذموم، فالعاقل يأخذ في أموره بالحذر والحزم، وفعل أولي العزم، فمتى غلبه أمر لا يطيق دفعه، ولا رفعه، فعند ذلك يلتجىء إلى قوله: هذا قدر الله، وما شاء فعل، ليسلّي بذلك نفسه.

---

(١) سورة النساء: ٧١.

(٢) سورة الأنفال: ٦٠.

على المرء أن يسعى ويبذل جهده وليس عليه أن تتم المقاصد

أما إذا غلبه أمر بسبب ضعفه، وعجزه، وتقصيره بأخذ الحيطة، ووسائل الوقاية، والحفظ، فإنه ملام على عجزه، ولا معنى لاحتجاجه بقضاء الله وقدره ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾(١). ولما قصّر الصحابة يوم أحد في حمايتهم، وأهملوا الشعب الذي أمرهم النبي ﷺ بحفظه حتى دخلت عليهم خيل المشركين من جهته، فقتلوا سبعين من الصحابة، وكانوا يظنون أنهم لن يغلبوا، من أجل أنهم جند الله، والمجاهدون في سبيله مع نبيّه، فأنزل الله ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾(٢)، أي بسبب تقصيركم بحفظ بيضتكم، وحماية ثغركم.

وعاجز الرأي مضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: إن التوكل، إنما يكون مع الأخذ بالأسباب، وإن ترك الأسباب بدعوى التوكل، لا يكون إلا عن جهل بالشرع، أو فساد في العقل، فالتوكل محله القلب، والعمل بالأسباب، محله الأعضاء والجوارح، والحركة، والإنسان مأمور بالأسباب ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾(٣)، ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾(٤).

يسأل بعضهم: هل الإنسان مخيَّر أو مسيَّر؟

فالجواب: أن الإنسان مخيّر، أي فاعل مختار لعمله، سواء كان خيراً، أو شراً، فلا يقع فعل مقصود إلا من فاعل مختار، يقول الله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾(٥)، وقال: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾(٦)، والله سبحانه يقول عند عرض صحائف الأعمال يوم القيامة «يا عبادي

(١) سورة النساء: ٧٩.
(٢) سورة آل عمران: ١٦٥.
(٣) سورة العنكبوت: ١٧.
(٤) سورة تبارك: ١٥.
(٥) سورة الإنسان: ٣.
(٦) سورة الأنعام: ١٠٤.

إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومنّ إلا نفسه»[1].

فمن قال: إن الإنسان مسيّر، فإن هذه طريقة الجبرية، القائلين إن الإنسان لا يعدو أن يكون مجبوراً محضاً في جميع أفعاله، وتصرفاته، ويصفونه في تصرفه بالريشة المعلقة في الهواء، تقلّبها الرياح اضطراراً، لا اختياراً.

وينشدون في ذلك:

ما حيلة العبد والأقدار جارية عليه في كل حال أيها الرائي

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إيّاك إيّاك أن تبتلّ بالماء

وأقول: إن هذا الشعر هو من الكذب المفترى على الله، وعلى رسوله، وعلى القضاء والقدر، فما ذنب القضاء والقدر؟ ولكنهم المذنبون يجادلونك بالباطل ليدحضوا به الحق، فهو بعيد عن الحق، فإن الله سبحانه لم يخلق الإنسان في الدنيا مكتوفاً عن العمل والسعي، والأخذ بأسباب الحول والقوة، وسائر ما يؤهله من السعادة، والوصول إلى الغاية والنعيم في الدنيا وفي الآخرة، يقول الله: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً**﴾[2]، وقال: ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[3]، فهذه هي الوسائل والأسباب التي تنجيه من عذاب الدنيا، وعقاب الآخرة، فيكون سعيداً في حياته، سعيداً بعد وفاته.

أما إذا عطّل الإنسان هذه المنافع، ولم يستعملها في سبيل ما خلقت له، من عبادة ربه، واستعمالها في مصالحه، ومنافعه المباحة، فيكون بمثابة الأعمى والأصم، أو كالميت المكتوف. كما قال سبحانه: ﴿**وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ**﴾[4]،

---

(١) رواه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه.
(٢) سورة الإنسان: ٣.
(٣) سورة النحل: ٧٨.
(٤) سورة الأحقاف: ٢٦.

وقال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾(١)، وحكى - سبحانه - عن أهل النار ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾(٢).

فقد خلق الله الإنسان، وخلق له السمع، والبصر، والأفئدة، وخلق له أيضاً جميع ما يحتاج إليه في الدنيا من المطاعم، والمشارب، واللباس، والأدوية.

فكل العقاقير التي يستعملها الأطباء لعلاج الأمراض، والوقاية من البلاء والوباء، فهي بالحقيقة من مخلوقات الله التي أنبتها في أرضه، رحمة منه لعباده بإيصال نفعها إليهم، وخصّ كل نوع منها بمرض يزاوله ويشفيه. فهي من قدر الله التي يقدر الله بها دفع البلاء ورفعه؛ لكون الدواء، أماناً للصحة وقت المهلة، فالقائلون: ألقاه في اليم مكتوفاً، هم الجبرية، الذين يحتجون بالقدر، ويحاولون أن ينزهوا أنفسهم عن سوء ما فعلوا من المنكرات، وترك الطاعات.

قال الخطابي - رحمه الله -: قد يحسب كثير ممن لا علم عندهم: أن القضاء والقدر من الله، عبارة عن إجبار العباد وقهرهم على ما قدره وقضاه، وليس كذلك. وإنما معناه: الإخبار عن تقدم علم الله بما يكون من أفعال العباد، واكتسابهم لأعمالهم، والحجة إنما تلزمهم بها، واللائمة تلحقهم عليها؛ لمباشرتهم تلك الأفعال، وملابستهم إياها عن قصد وتعمد.

فالقدر بنسبته إلى الله: عبارة عن سبق علم الله بالعباد، وما هم فاعلون وليس علمه بها هو جبر منه لهم على فعلها(٣). انتهى.

ويحيلون جورهم، وفجورهم، من تركهم الطاعات، وارتكابهم المنكرات، وشرب المسكرات، إلى القضاء والقدر، وما ذنب القضاء والقدر، ولكنهم المذنبون. فلو تعدى ظالم على أحد هؤلاء بضربه، أو أخذ ماله، أو انتهاك محارمه، ثم احتج على سوء

---

(١) سورة الفرقان: ٤٤.

(٢) سورة الملك: ١٠ - ١١.

(٣) نقله عنه شيخ الإسلام في منهاج السنة. ونقله الخازن في تفسيره على قوله سبحانه: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾.

فعله بالقضاء والقدر، فإنه لن يقبل منه هذا الاحتجاج، لعلمه أنه احتجاج باطل، حاول به التوصل إلى باطل ببديهة العقل، فكيف يقبل على الله في ترك طاعاته، وارتكاب محرماته[1]؟.

ولهذا يرى بعض العلماء: أن يُجاوَبَ الجبريةُ بالصفع على الوجه، ويقال: هذا قضاء الله وقدره، كما كنت تحتج به.

ولمّا جيء إلى عمر بن الخطاب بسارق قد سرق، واعترف. فقال له عمر: ما حملك على السرقة؟ فقال: حملني عليها قضاء الله وقدره. فقال: وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره. ثم أمر به، فقطعت يده.

ومثله احتجاج بعضهم بقول الشاعر:

جرى قلم القضاء بما يكون فسيّان التحرك والسكون

وهذا أيضاً يعد من أفسد الشعر، يتمشى على عقيدة الجبر، كما ذكرنا فيما سبق. وهذا القول، وهذا الاعتقاد، باطل بمقتضى النقل، والعقل، فهم يصورون القضاء والقدر في نفوسهم، بمثابة الغل في العنق، والقيد في الرجل، بحيث لا يتقصى أحد عنه، ولا محيص للناس منه، وهو مدفوع بقول النبي ﷺ في هذا الحديث: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله، ولا تعجز». والله سبحانه لم يخلق في الدنيا سدى مهملين، مضيعين، كالمكتوفين، بل خلقهم عاملين، متحركين، مختارين.

ومن بطَّأ به عمله، لم يسرع به اتكاله على قضاء الله وقدره.

وحقيقة القدر: هو الإخبار عن سبق علم الله بالأشياء قبل كونها، وأنه يعلم ما كان، وما سيكون، كيف يكون. لأنه لا يخفى عليه خافية من أعمال عباده. فعلمه بالأشياء قبل وقوعها شيء، والجبر منه عليها شيء آخر. فقد ثبت في صحيح

---

(١) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته عن القضاء والقدر: القدر نؤمن به، فمن احتج بالقدر فحجته داحضة، ومن اعتذر بالقدر فعذره غير مقبول، ولو كان الاحتجاج بالقدر مقبولاً، لقبل من إبليس، وغيره من العصاة، ولو كان القدر حجة للعباد لم يعذب الله أحداً من الخلق لا في الدنيا، ولا في الآخرة، ولو كان القدر حجة، لم تقطع يد سارق، ولا قتل قاتل، ولا أقيم حد على ذي جريمة، ولا جوهد في سبيل الله، ولا أمر بمعروف، ولا نهي عن منكر.

مسلم، من حديث عبدالله بن عمر، أن النبي ﷺ قال: (**إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة**)، وهذه الكتابة هي عبارة عن سبق علم الله بالأشياء قبل أن تقع. وهذه الكتابة هي من عالم الغيب، فلا ينبغي أن نشبه كتابته بكتابتنا، ولا قلمه - سبحانه - الذي يكتب به بأقلامنا.

قال ابن عباس: إن الله خلق الخلق، وعلم ما هم عاملون، ثم قال لعلمه كن كتاباً، فكان كتاباً، فأنزل ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾[1]. ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب (الإيمان) صفحة١٩٩ .

وثبت أن الله يدفع القدر بالقدر، وأن الله يمحو القدر بالقدر، وسمع من دعاء عمر، أنه يقول: «اللهم إن كنت كتبتني في أم الكتاب شقياً، فامحني، وأثبتني سعيداً. فإنك تمحو ما تشاء وتثبت». والله يقول: ﴿**يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾[2]، مما يدل على أن المحو قد أزيل به كتاب سابق. وفي حديث ثوبان: أن النبي ﷺ قال: (**لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر، وأن الصدقة لتدفع ميتة السوء**)[3]. وفي دعاء القنوت (**وقنا واصرف عنا شر ما قضيت**)، فأثبت في هذا الحديث، كون الدعاء يرد القدر والقضاء، كما أن الصدقة تدفع ميتة السوء. وكذا قوله: «ولا يزيد في العمر إلا البر» سواء حملناه على زيادة الأيام والليالي، أو على البركة في العمر، والكل واقع بقضاء الله وقدره.

فالأنبياء، والعلماء، دينهم الأمر، ويقدمونه على القدر. فقول الشاعر:

جرى قلم القضاء بما يكون فسيّان التحرك والسكون

هو قول باطل قطعاً، فلا يكون التحرّك مثل السكون؛ إذ أن مدار الشرع على الأمر والنهي، وأصدق الأسماء: حارث وهمّام، فالهمّام: هو الذي يهم بقلبه، سأفعل كذا. والحارث: هو الذي يسعى بيديه ورجليه إلى تحقيق آماله، والسعي في أعماله، وقد قيل:

---

(١) سورة الحج: ٧٠.

(٢) سورة الرعد: ٣٩.

(٣) رواه ابن حبان والحاكم وقال: صحيح على شرطهما.

المسلم الحق يصلي فرضه ويأخذ الفأس ويسقي أرضه

يجمع بين الشغل والعبادة ليكفل الله له السعادة

وقد قلنا بأن المرض الذي يصاب به الشخص، هو من قضاء الله وقدره، وأن الدواء الذي يعالج به ليشفيه، هو من قضاء الله وقدره أيضاً، فهم يشربون الدواء الكريه المرّ ليقيهم من الوقوع في الضر، كما قيل:

وخذ مراً تصادف منه نفعاً ولا تعدل إلى حلو يضر

فإن المرّ حين يسر حلو وإن الحلو حين يضرّ مرُّ

وقد ثبت في الحديث: (**بادروا بالصدقة، فإن البلاء لا يتخطى الصدقة**). وفي مراسيل الحسن، أن النبي ﷺ قال: (**حصنوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصدقة، واستعينوا على حمل البلاء بالدعاء والتضرّع**)[1]. والدعاء يتعالج مع البلاء بين السماء والأرض، فلا يعجز أحدكم عن الدعاء، ويقول: إن كان هذا الأمر مكتوباً لي، فسوف يأتيني، دعوت، أو لم أدع، فإن هذه طريقة الملاحدة الذين يحاولون إبطال عبودية الدعاء، وهو مخ العبادة. وقد قدر الله بعض الأشياء، ولا يحصلها الإنسان إلا عبر طريق الدعاء. وإن لم يدع لم تحصل له ﴿**وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ**﴾[2]. وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

حقيقة النفاق وتفاصيله:

النفاق في اللغة العربية: هو من جنس الخداع، والمكر، وإظهار الخير، وإبطان خلافه، وهو في الشرع ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: النفاق الأكبر، وهو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، ويبطن ما يناقض ذلك أو بعضه. وهذا هو النفاق الذي كان على عهد رسول الله ﷺ ونزل القرآن بذم أهله وتكفيرهم، وأخبر أن أهله في الدرك الأسفل من النار.

---

(١) رواه أبو داود في مراسيله عن الحسن البصري.

(٢) سورة محمد: ٣٨.

الثاني: النفاق الأصغر، وهو نفاق العمل: وهو أن يظهر الإنسان علانية صالحة، ويبطن ما يخالف ذلك.

وأصول هذا النفاق يرجع إلى هذه الخصال المذكورة في حديث عبدالله بن عمر، عن النبي ﷺ قال: (**أربع من كن فيه، كان منافقاً، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر**) رواه البخاري ومسلم.

وكذا حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: (**آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان**)، رواه في الصحيحين.

فهذه هي من جملة كبائر الذنوب التي صاحبها تحت مشيئة الله - عزّ وجلّ - إن شاء عذّبه، وإن شاء عفا عنه.

وكما أن الكفر نوعان: كفر أصغر لا يخرج عن الملة، كقوله ﷺ: (**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**)[1]، وقوله: (**اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في الأنساب والنياحة على الميت**)[2]. أما الكفر المخرج عن الملة، فهو كفر الجحود، وكفر العناد، وكفر الإباء والاستكبار؛ مثل كفر أبي طالب ونحوه. فقد اعترف بصدق نبوة محمد ﷺ وصدق القرآن النازل عليه، ولكنه آثر عليه ملة أبيه عبدالمطلب، فقال عند موته: أنا أموت على ملة عبدالمطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: (**لأستغفرن لك ما لم أنهَ عنك**)، فأنزل الله: ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**﴾[3]. وأنزل الله في أبي طالب: ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾[4].

والله أعلم.

---

(١) رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود.

(٢) رواه الإمام أحمد ومسلم عن أبي هريرة الدوسي وغيره.

(٣) سورة التوبة: ١١٣.

(٤) سورة القصص: ٥٦.

الإيمان بالإسراء بنبينا محمد ﷺ

قال الله سبحانه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾(١).

إن هذا القرآن الكريم يقص علينا خبرَ من كان قبلنا، ونبأ ما سيكون بعدنا، وهو الحكم العدل فيما بيننا.

يذكر - سبحانه -: بأنه أرسل رسله بالبينات، وبالبراهين والمعجزات يدعون الناس إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، وليحكموا بين الناس بالقسط.

فمن الناس من استجاب لدعوتهم، وانقاد لطاعتهم، وصدق نبوتهم، ومعجزات آياتهم، ومن الناس من بغى وطغى، فلم يستجب لداعي الهدى، وأصرّ على معصيتهم، ولم يؤثر معه ما يراه من معجزات نبوتهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾(٢).

فهؤلاء قد عوقبوا بما تسمعون من قوله سبحانه: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٣).

إن الناس في المعجزات والأمور المغيبات على قسمين:

أحدهما: المؤمنون الذين آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين، فهم يؤمنون، ويصدقون بكل ما أخبر الله به في كتابه، من معجزات أنبيائه تصديقاً جازماً، سواء أدركوا سر معرفته بعقولهم، أو لم يدركوه؛ لأن عدم علمهم بالشيء، ليس دليلاً على عدمه، فقد أتت الرسل بمحاراة العقول، فهم الذين يؤمنون بالغيب، على صفة ما أثبته القرآن، ويقولون آمنا بالله، وما جاء من الله، على مراد الله.

---

(١) سورة يوسف: ٣.
(٢) سورة يونس: ٩٦ - ٩٧.
(٣) سورة العنكبوت: ٤٠.

لأن المسلم الحق، متى آمن بالله القادر على كل شيء، والذي إذا أراد أمراً قال له كن فيكون، فإنه لن يعسر عليه التسليم لكل ما أخبر الله به في كتابه، من معجزات أنبيائه، فقد أجرى الله سبحانه خوارق العادات في خلقه، من معجزات أنبيائه التي تجري على خلاف السنن المطردة والمعروفة والمألوفة عند الناس، مما يدل على قدرة الرب الذي أوجدها، وصدق النبي الذي جاء بها. وإنما سميت معجزة: لكون الناس يعجزون عن الإتيان بمثلها، لكونها من صنع الله، لا من صنع الرسول، ولا البشر. ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾(١). وتسمّى الآية، والبينة، والبرهان، ولكل نبي معجزة تناسب حالة قومه ومجتمعهم.

فمن المعجزات: خلق آدم من تراب، ثمّ قال له كن فكان، فصار بشراً سوياً، وكخلق حواء من ضلع آدم، وخلق عيسى من أم بلا أب ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(٢). ومثله عصا موسى، وهي عود من الشجر، يتوكأ عليها، ويهش بها على غنمه، وإنما صارت آية ومعجزة، حين أمره ربه أن يلقيها، فقال سبحانه: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾(٣).

إنه حين ألقاها صارت ثعباناً عظيماً بإذن الله، ولمّا أمره ربه أن يأخذها صارت عصاً كعصا أحدنا في يده، وكمعجزة الريح لنبي الله سليمان - عليه السلام - حين قال الله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾(٤).

فكان يبسط البسط، ويجلس عليها هو وجميع جنوده على كثرتهم، فتنقلهم غدوها مسيرة شهر ورواحها مسيرة شهر. وكمعجزة نبي الله عيسى - عليه الصلاة والسلام - حين أنطقه الله في المهد، فقال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي

(١) سورة الرعد: ٣٨.
(٢) سورة آل عمران: ٥٩.
(٣) سورة طه: ١٩ - ٢١.
(٤) سورة ص: ٣٦ -٣٨.

نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾[1]، فكان يبرىء الأكمه، والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله.

وأنه لولا هذا القرآن النازل على محمد - عليه أفضل الصلاة والسلام - حين يقص علينا خبر معجزات الأنبياء، التي تعزز دينهم، وتستدعي قبول دعوتهم، لكذّب الناس بهم، وبالكتب النازلة عليهم.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

فالتصديق بهذه المعجزات، هي عقيدة المؤمنين، ومن كذّب بها فقد كفر.

الصنف الثاني: الماديون الطبيعيون، الذين ينسبون كل شيء إلى الطبيعة، بمعنى أنها الموجدة لها دون الله، فهم ينكرون ويكذبون بكل ما لم يدركوه بحواسهم، فينكرون وجود الرب، ويكذبون بالملائكة، ويكذبون بالبعث بعد الموت، ويكذبون بالجنة والنار.

وفيهم أنزل الله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾[3].

فهم يبادرون إلى إنكار كل ما سمعوه من الخوارق، والمعجزات، والأمور المغيبات، فهذا دأبهم في نظرياتهم العلمية، ومن لا يؤمن إلا بما يدركه بحواسه، فإنه يعتبر بأنه كافر بالكتاب وبما أرسل الله به رسله.

أما معجزات نبيّنا محمد - عليه الصلاة والسلام - فإنها كثيرة جداً، ولسنا بصدد إحصائها في هذا المقام الضيق.

---

(١) سورة مريم: ٣٠ - ٣٢.

(٢) النمل: ٧٦-٧٧.

(٣) سورة يونس: ٣٩ - ٤٠.

فمنها: نبع الماء من بين أصابعه، ومنها تكثير الطعام القليل حتى يشبع منه الخلق الكثير، ومنها قصة الأعرابية صاحبة السطيحتين، أي الراويتين، وحاصلها ما رواه البخاري في صحيحه عن عمران بن الحصين، قال: كنا في سفر مع النبي ﷺ فاشتكى إليه الناس من العطش، فدعا علياً وفلاناً. فقال: اذهبا فابتغيا الماء، فانطلقا، فتلقيا امرأة بين سطيحتين من ماء على بعير لها، فقالا لها: أين الماء؟ فقال: عهدي بالماء أمس هذه الساعة. فقالا لها: انطلقي. قالت: إلى أين؟ قالا: إلى رسول الله ﷺ قالت: الذي يقال له الصابىء؟ قالا: هو الذي تعنين. فجاؤوا بها إلى رسول الله ﷺ، ودعا النبي ﷺ وأطلق العُزال[1]، ونودي في الناس: اسقوا، واستقوا. فملأوا قربهم وقدورهم، وأوانيهم، وأعطي الذي أصابته الجنابة إناء من ماء، فقال: اذهب، فأفرغه عليك، وأيم الله، لقد أقلع عنها، وأنه ليخيل إلينا أنها أشد ملأة منها حين ابتدأها. وقال لها رسول الله ﷺ: **(تعلمين ما رزأنا من ماءك شيئاً، ولكن الله هو الذي أسقانا)**، فأتت أهلها، وقالوا: ما حبسك عنا؟ قالت: العجب، لقيني رجلان، فذهبا بي إلى هذا الذي يقال له الصابىء، ففعل كذا وكذا، فوالله إنه لأسحر ما بين هذه وهذه، تعني السماء والأرض، أو أنه رسول الله حقاً، وبسبب هذه المعجزة، أسلم قومها، وكان العرب يسمون الرسول ﷺ: الصابىء، فمن أجل أن الناس يصبون إليه - أي يميلون إليه - ويدخلون في دينه. ومثله ما جرى له مع شاة أم معبد - وكانت عجفاء هزيلة لا تطيق المشي مع الصحاح، فمسح ضرعها، وسمّى الله عليها، فتشافجت، واجترت، ودرت، ثم انفجرت باللبن.

سلوا أختكم عن شاتها وإنائها فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد

لكن المعجزة الخالدة الدائمة إلى يوم القيامة هي معجزة القرآن الحكيم، الذي تحدى الله به جميع الأولين، والآخرين، على أن يأتوا بسورة من مثله، فعجزوا مع بلاغتهم، وشدة فصاحتهم ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً**﴾[2].

---

(١) العُزال: القربة.

(٢) سورة الإسراء: ٨٨.

فهو معجزة الدهور، وآية العصور، وسفر السعادة، ودستور العدالة، وقانون الفريضة والفضيلة، والواقي عن الرذيلة، وفي الصحيحين: أن النبي ﷺ قال: (**ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحى الله إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**)[1].

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلا

إن معجزات سائر الأنبياء قد وقعت بوقتها، ومضت بمضي زمانها، بحيث لا يشاهدها الناس الآن، غير أن المسلمين يؤمنون بها دون أن يشاهدوها تبعاً لإيمانهم بسائر المغيبات التي أخبر الله بها.

وإنما المعجزة الخالدة الدائمة والمشاهدة بالأبصار إلى يوم القيامة، هي معجزة القرآن، الذي فيه خبر ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم. يقول الله سبحانه: ﴿**كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا**﴾[2].

إذ لا يمكن إثبات معجزات الأنبياء السابقين، إلا عن طريق القرآن الكريم، النازل على محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم، فمن هذه المعجزات (معجزة الإسراء والمعراج)، قال تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾[3].

فاستفتح - سبحانه - خبر هذه المعجزة العظمى بقوله: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ**﴾ وكان من هدي النبي ﷺ أنه إذا أعجبه شيء إما سبح، وإما كبر، آخذاً من القرآن، وقد استبدل الناس بهما التصفيق بالأيدي، والتسبيح والتكبير خير لهم لو كانوا يعلمون.

والصحيح من أقوال العلماء: أنه أسري برسول الله ﷺ بروحه وجسده؛ لكون المقام، وفحوى المقال، ينبىء عن معجزته العظمى في خبر الإسراء.

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة.

(٢) سورة طه: ٩٩ - ١٠٠.

(٣) سورة الإسراء: ١.

فأثبت القرآن أن الله أسرى، بنبيّه ورسوله محمد، ليلاً من المسجد الحرام. فقيل: أسريَ به من الحجر، وهو الصحيح. وقيل: من بيت أم هانىء، إلى المسجد الأقصى الذي هو بيت المقدس، وهذا الإسراء معجزة عظمى، خارقة للعادة، والمعجزة، كاسمها، بحيث يعجز الناس عن معارضتها، والإتيان بمثلها، وهي تدل على صدق نبوة من أتى بها.

وذكر أنه أُتي بالبراق، وهو دون الفرس، وفوق الحمار، وسمّيَ براقاً، لأنه مشتق من البرق في سرعته، ليريه من آياته وعجائب مخلوقاته في المسجد الأقصى، وفي السماء، وأنه من بعد وصوله إلى بيت المقدس صلى بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وصلاته بهم، إنما هي بأرواحهم، وإلا فإنهم قد دفنوا في الأرض.

ثم إنه عرج به إلى السماء، في صحبة جبريل - عليه السلام - فاستفتح السماء الدنيا، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: أأرسل إليه؟ قال: نعم، فقالوا: مرحباً به، فنعم المجيء جاء. ثم استفتح كل سماء مثل هذا، حتى انتهى إلى سدرة المنتهى، وفرض الله عليه الصلوات الخمس مع فرض الوضوء على القول الصحيح. فقال: هي خمس، وهي خمسون - أي في مضاعفة الأجر - والصحيح من أقوال العلماء، ومن نصوص القرآن والسنة: أن الرسول ﷺ لم ير ربه تلك الليلة، لكون رؤية الرب مستحيلة في الدنيا، كما حكى الله عن نبيه موسى - عليه السلام - أنه قال: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي﴾(١).

يقول الله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾(٢).

ولمّا سئل النبي ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: (نور أنّى أراه)- أي حال دون رؤيته نور. قالت عائشة من حدثكم أن رسول الله ﷺ رأى ربه فقد أعظم الفرية عليه، ثم استدلت بقوله: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(٣).

---

(١) سورة الأعراف: ١٤٣.

(٢) سورة الشورى: ٥١.

(٣) سورة الأنعام: ١٠٣.

وأما قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾[1]، فإنه جبريل حين رآه في صورته التي خلقه الله عليها، بمنظر عظيم هائل.

وهذا الإسراء والمعراج، حصل في ابتداء نبوته، وليس عندنا دليل يثبت تعيين يومه أو شهره بطريق صحيح.

فالقول بأنه في شهر رجب، هو قول لا صحة له، ولا يستند إلى دليل، ولم يكن من عادة الصحابة، ولا التابعين، التجمع للإسراء والمعراج، وليس له عندهم أي عمل، أو اهتمام، وإنما يؤمنون بما قص الله في القرآن من خبره وأما ما يفعله بعض الناس في هذا الزمان، وفي بعض البلدان، من التجمعات للإسراء، والمولد، والنصف من شعبان، كله من البدع المحدثة التي ما أنزل الله بها من سلطان.

والحكمة من ذكره لها في القرآن، هو الإيمان به، والعمل بما أوجب الله من المحافظة على الصلوات الخمس التي افترضها، فهي أول ما افترض من الشرائع، كما أنها آخر ما يفقد من دين كل إنسان، وإنما سميت البدعة بدعة؛ لكونها زيادة في الدين، ومن عادة البدعة، التمدد والزيادة كل عام.

فاقتصاد في سنّة، خير من اجتهاد في بدعة، ومحبة الرسول ﷺ يظهر حقيقتها في طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

فقول بعضهم إنها بدعة حسنة، خطأ، فليس في الإسلام بدعة حسنة، بل كل بدعة ضلالة وكل بدعة سيئة، وقد وردت أحاديث في أمور رآها رسول الله ﷺ في الإسراء، منها قوله: (رأيت **ليلة أسري بي رجالاً تقرض شفاههم بمقاريض من النار، فقلت: يا جبريل. ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون**) رواه الإمام أحمد وغيره من حديث أنس بن مالك.

قال: (**ورأيت رجالاً على أقبالهم رقاع، وعلى أدبارهم رقاع، يسرحون كما تسرح الأنعام، ويأكلون الضريع، والزقوم، ورضف جهنم. فقلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الذين منعوا زكاة أموالهم، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون**).

---

(١) النجم: ١٨.

قال: (**ورأيت قوماً يزرعون في يوم، ويحصدون في يوم، فإذا حصدوا، عاد كما كان، فقلت: يا جبريل، ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، فما أنفقوا من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين**)، رواه البزار من حديث أبي هريرة وفي سنده ضعف.

فهذا ملخص حديث الإسراء برسول الله ﷺ يؤمن به المؤمنون، ويكذّب به الزناقدة الملحدون ﴿**وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ**﴾[1].

وسبحان ربك ربّ العزّة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

(١) يونس: ٤١.

البهائية وابتداء دعوتها

نشأت البهائية في إيران، وكان أول من أنشأها رجل شيعي من مواليد الأحساء اسمه: الشيخ أحمد الأحسائي سنة ١١٦٦هجرية، وسُموا الشيخيّة نسبة إليه. واشتهر بتبشيره بظهور المهدي. وله آراء باطنية وفلسفية تحوم حول تغيير نظام الإسلام وشريعته. ويدعي أن لديه علماً لدنياً تلقاه عن آل البيت. ويبشر بدعوة سريّة، ينظم حركتها، أو يولي الخلفاء من بعده.

واقتفى خطة الباطنية، في تحريف القرآن والسنة، إلى غير المعنى المراد منها، وفقاً لآرائه ونزعاته. وكان يقول: إنه لا يوجد بعدي من يعرف مقصدي سوى السيد (كاظم الرشتي) فاطلبوا علومي منه، ولم يزل متنقلاً داعياً، إلى أن توفي بجدة، من أرض الحجاز، سنة ١٢٤٢هجرية. ثم تولى كاظم الرشتي الدعاية بعده إلى أن توفي سنة ١٢٥٩هجرية.

البابية

ثمّ قام (علي محمد) بعد وفاة (الرشتي) سنة ١٢٦٠ هجرية، مدعياً أنه نائب عن الإمام المنتظر، وأنه بابه الذي يفتح به ظهور الإمام، فسمّوا البابية من أجله. وهم فرع من البهائية. ثم أظهر أنه الإمام المنتظر (المهدي). فقام بثورة، وأخذ يظهر للناس فنوناً من الكفر. وأن شريعته تنسخ شريعة القرآن، وأنها قد أنهت دور الشريعة المحمدية، فلا صلاة، ولا صيام، ويعمد إلى النصوص القرآنية، فيتأولها تأويلات الباطنية، ويقلب حقائقها، ويصرفها عن المعنى المراد منها.

ثم ادعى أنه باب الله، وأنه سيد من عترة الرسول ﷺ.

فأنكر علماء فارس على طائفة البهائية علمهم، وعملهم، وحكموا بكفرهم، وردّتهم، وأصدرت محكمتهم الشرعية حكمها بقتل الباب (علي محمد) وإعدامه؛ لكفره، وردّته. فقتل في تبريز سنة ١٢٦٦ هجرية. وجعلوا يتتبعون أتباعه، حتى

قتلوهم في كل مكان، ثم انتشروا في البلدان يدعون إلى نحلتهم على سبيل التقية والتستر.

ومن البهائية: امرأة تدعى (قرة العين) وكانت من أبرز دعاة البابية، وهي فتاة إيرانية من قزوين، بنت حاجي ملا صالح، وزوجة ابن عمها الملا محمد بن الملا نقي. المسمّى عند الشيعة بالشهيد الثالث. وقد اجتمعت هذه بالرشتي في كربلاء، فانتسبت إليه، وكتبت رسالة بتأييد شيخه الأحسائي فأجابها برسالة افتتحها بقوله: يا قرة عيني، وفرح فؤادي، فاشتهرت من ذلك الحين بهذا اللقب، وكانت على جانب عظيم من الخبرة والطلاقة والجمال، وذاع خبر السوء عنها بما يُعد اشتهاراً وفجوراً، فأسماها أنصارها بالطاهرة. ولما قيل لكاظم الرشتي عن فجورها. قال: إني والله أعلم ذلك، ولكن ماذا أصنع بامرأة سمّاها الله الطاهرة من فوق سبع سموات، ولم تنتزع عن الدعوى رغم حنق علماء بلدها بما فيهم أبوها، وأخوها، وزوجها، حتى أصبحت بلدها قزوين مركز دعوة البابية.

القاديانية

أما القاديانية؛ فإن مبدأها من رجل يدعى (ميرزا غلام أحمد) من سكنة قاديان بالهند. فنسبت طائفته القاديانية إليها. ولد (غلام أحمد) سنة ١٢٥٢ هجرية، ولما بلغ سن التعليم، تعلم بعض الكتب الفارسية، وتعلم اللغة العربية، والنحو، والمنطق، والفلسفة. ثم تقلد وظيفة في إدارة نائب المندوب السامي، ثم استقال منها لمّا استدعاه أبوه إلى مساعدته في أعماله الخاصة. وكان بزازاً، ثم مرض أبوه، فزعم غلام أحمد: بأنه نزل عليه وحي من الله، أن أباه سيموت بعد الغروب، فمات تلك الساعة، وهذه بداية دعوته، في ادعاء نبوته سنة ١٨٧٦ ميلادية، وأخذ بعد هذا يصرّح بآراء يزعم بأنه نزل عليه الوحي بها. وكان المسلمون في الهند يلاقون هذه المزاعم بالإنكار الشديد.

ثم أظهر منشوراً أعلن فيه بأنه المسيح المنتظر، فقام في وجهه علماء الشريعة بالهند، فأنكروا عليه أشد الإنكار، وكادوا يقتلونه، لكنه استجار بالإنجليز، فبالغت

في نصرته وحمايته، وكان يصب الثناء والمدح لهم في سائر خطبه ومنشوراته، ثم انتقل غلام أحمد إلى دلهي، يدعو إلى نحلته، ويدعي الوحي، والنبوة، والرسالة، وأخذ يخطب، وينشر المنشورات، غير مبال بالقرآن ولا بالسنة، ولا بإجماع الأمّة، ويقول: إن كل من لم يصدق نبوتي، فهو كافر. ويقول: إن سائر الأمم من اليهود والنصارى والمجوس الذين كذّبوا نبوة محمد، فإنهم سيؤمنون برسالتي، ويقول: وإن تعدّوا آيات نبوتي لا تحصوها إلى غير ذلك من الهراء والغرور.

وليس الوحي والرسالة عند القاديانية بمقصورة على غلام أحمد، بزعم نحلتهم، بل يدعون أن أتباعه ينزل عليهم الوحي. ويقولون: إن طريق الوحي لا يمكن أن يسد في وجوه الناس. ويزعم أن غلام أحمد أنه نزل عليه الوحي بقوله: «إني جاعلك للناس إماماً، ينصرك رجال نوحي إليهم»، فهم ينكرون كون النبي محمد خاتم النبيين، ويزعمون أن شريعتهم قد نسخت شريعة محمد. وبذلك انفصلوا عن المسلمين بعقيدتهم، وطريقتهم، ونبيهم، فليسوا من المسلمين، ولا المسلمون منهم.

وقد نشطوا في دعوتهم بما يخدع الهمج السذّج، الذين هم أتباع كل ناعق، يميلون مع كل صائح، أقرب شبهاً بهم الأنعام السائمة، وليسوا ببدع من المدعين للرسالة، فقد مضى للكذابين مثلها دعاوى، فقد ادعاها مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، والمختار بن أبي عبيد، ومن بعدهم أناس صالوا بدعوتهم، وصار لهم أنصار، وأتباع، ثم تمزقوا، وتفرقوا، واضمحلوا، وزالوا. والله أعلم حيث يجعل رسالته ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾[1].

والله أعلم. وسبحان ربك رب العزّة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

*****

(١) سورة الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣.